



كتاب شهري يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي

من جماليات التصوير في القرآن الكريم

محمد قطب عبد العال



كتاب شهري يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي

من جماليات التصوير في القرآن الكريم

محمد قطب عبد العال

السنة الثالثة عشرة

ربيع الأول ١٤١٥هـ - العدد ١٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم



مدخل

للتصوير في القرآن الكريم جمالياته الفنية التي تؤثر في العقل والقلب معاً. فهي تخاطب الذهن في أرقى عملياته الفكرية والإدراكية وتخترق كوامن الوجدان فترقه حتى يصبح صافياً حياً وناضجاً متألقاً. ومن ثم يكون المنطق التأثيرى آخذاً بالنفس البشرية متملكاً لجوانبها وأبعادها.

والتصوير ملمح أساسى فى النص القرآنى يتضافر فى تحقيقه اللفظى برنينه الصوتى ، والجملة بتراكيبها المتنوعة وبنغماتها الداخلية ، والفاصلة بإيقاعها المتلائم مع النسق اللفظى والسياق العام ، والمشهد الحى بتكريس التصوير فيه الى التجسيد الحى حركة وتأثيراً . . بل انه ليرتق عذب الإيقاع من آيات الأحكام والتشريع . .

وهذه المنظومة الجماليات التصوير تتوالى فى سياق دلالى فتعطى للمعنى عمقا وللهدف الدينى نفاذاً الى أعماق النفس البشرية فتهزها هزاً.

والقرآن الكريم يرسم الصورة ، ويعرض المشهد بحيث تتوافر الجماليات فى تناسق فنى ، فتآزر الأشكال والجزئيات مع الدلالات المعنوية المصاحبة لتحقيق المقصد الدينى والوجدانى فى وحدة تصويرية واحدة . .

إن التصوير فى القرآن نمط فى الأسلوب البيانى بلغ حد الإعجاز، وكان تأثيره فى النفوس نافذاً حتى الأعماق .

الفصل الأول :

● **الجمال التصويبي**

● **بين اللفظ والمعنى**

يتبدى الجمال التصويرى فى القرآن الكريم شاملاً جوانب كثيرة تتألف جميعاً لتعطى لنا هذا الجانب الغالب فى القرآن . فالتصوير سمة واضحة الدلالة ، وملمح أسلوبى متفرد ، اتخذ تفرد من نفس العطاء اللغوى . ومع ذلك فهو ذو خصوصية متميزة ، وهونمط فى الأسلوب البيانى بلغ حد الإعجاز . وكان تأثيره فى النفوس نافذاً ومخترقاً لأعماق النفس .

فثمة تناغم فى الإيقاع الموسيقى ينساب من الحروف المتألفة ، والكلمات المتوازنة . والالفاظ — بما تحملها من دلالات فى المعنى وإيقاع النسق العام — تتلاقى فى عبارات بحكمها رنين الإيقاع وتتوالى منظومة الالفاظ والعبارات فى سياق دلالى — فتعطى للمعنى عمقا ، وللداء تصويراً ينفذ إلى القلب فيهزه . وإلى الوجدان فيرققه .

وتألف المعانى مع الالفاظ ، يُعطى التوحد فى التعبير ، ويُبرز الجانب الجمالى الكامن فيه . بحيث يبدو التكامل بين اللفظ والمعنى اندماج كامل فى النسق والدلالة ، (وكان المعانى جاءت مؤاخية للألفاظ ، وكان الالفاظ قطعت لها ، وسويت على حجمها)^(١) .

وجمال التعبير لا يتأتى من توالى الألفاظ أو العبارات ، فمجرد السرد اللفظى لا يدل على جمال فى ذاته ، أو روعة فى أدائه . . وإنما يتحقق ذلك من خلال التناسق فى الدلالة ، والتألف فى المعنى ،

(١) القرآن المعجزة الكبرى . . محمد أبوزهرة ص ٩٥ .

والتناغم في النسق . فليست للألفاظ جماليات خاصة بها . . تلازمها
كلما استخدمت ، أو نُطق بها . فاللفظ لا تكمن فصاحته وبلاغته في
ذاته ، فقد يجمل ، وقد يقبح حسب الأسلوب وطريقة الأداء . فليس
للألفاظ حسن ذاتي منفرد ، وإنما حسنهما يكمن في تألف الدلالة
وانسجام المعنى ، مع تلاؤم في الحروف وبعده التنافر ، وتمايز في الصورة ،
وتواصل في الإيقاع . .

فإذا وجدت الألفاظ وفق المعاني ، والمعاني وفقها ، لا يفضل
أحدهما على الآخر ، فالبراعة أظهر . . كما يرى الباقلاني . والتوافق هنا
ينسحب أيضاً على الجانب التعبيري الخاص بالصوت الموسيقي ،
والإيقاع المناسب . . فالحروف والكلمات والعبارات ألحان لغوية تبدو في
اتلافها وتآلفها كأنها قطعة واحدة .

إن كل لفظ قرآني له معناه الخاص به ، يتجلى فيه هذا الإشعاع
التصويري الجميل الذي عبر الجمل والتراكيب ، فتتآخى المعاني وتتلاقى
الألحان في انسجام وتوازن ، ويصاحب ذلك كله الصور الخيالية الجميلة
المنبثقة من هذا التألف المنسجم ، ومن هذا المعنى المطلوب .

واللفظ في القرآن له تفرد ودقته من حيث المعنى والدلالة
والسياق ، مما ينتفى معه الترادف . . وإن لاح الأمر من حيث الشكل . .
فالسباق يضاف على اللفظ مصاحبات دلالية وتصويرية تعطيها ملمح
التفرد والتميز . .

وثمة ألفاظ تردد متكررة في آيات القرآن الكريم ، وتحمل دلالات
متفردة لا تتعداها إلى غيرها من الدلالات التي يمكن أن يتصورها الإدراك
الفكري — وتصبح متلازمة تماماً مع المعنى والسياق الذي وردت فيه . .

ومن ثم تصبح الدقة الدلالية في اختيار اللفظ ملمحاً أسلوبياً متفرداً.

.. فمثلاً قد يتبادر إلى الذهن أن كلمتي «الرياح» و«الريح» بمعنى واحد. وأن الترادف قائم مشترك بينهما.. ولكن السياق القرآني استخدم كلا منهما في مجال تعبيرى خاص..

ولنلق نظرة على الكلمتين:

قال تعالى: ﴿وهو الذى يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾^(١).

صدق الله العظيم

نحن أمام مشهد كونى، يتسم بالحركة والحياة والتدفق. والانسان يستشعر من خلال حركة الاحياء هذا الايقاع الجميل الذى ينتظم المشهد كله بعزائيات الصورة الثلاث.. الرياح — الماء — الثمرات.. صورة حسية متلاحمة في تمازج لا ينفصل.. تشهد برحمة الله وفعله. ولقد وردت كلمة «الرياح» في مقام الخير والرحمة والنعمة.

وتمثلت حركة الرياح في صورة حسية عاقلة تحمل البشرى وتستجيب لنداء الربوبية في عبودية مسخرة وفي استسلام كامل، تبشر برحمة الله، فتدفع أمامها في حركة متوازنة مقصودة سحاباً ثقيلاً ممتلئاً بالخير العميم الذى سرعان ما ينهمل ماءً يحمل النماء والحياة للأرض الجذباء فاقدة الخصوبة والنماء.. وإذا بهذا الموت ينشق عن حياة

(١) الاعراف آية ٥٧.

بهيجة ، وتنطلق النباتات من كل نوع وشكل ، زاهية ، متألفة ، متخمة بالثمار .

وأمام هذه الصورة المشهدية الحية التى لا تخطئها عين ولا ينكرها عقل يأتى الربط بين الحياة الناشئة بقدر الله فى الأرض وبين البعث يوم القيامة وفق قدر الله ومشيتته . ويرى الزمخشري فى مجال الرإط بين الحسى والمعنوى ، أنه (لا فرق بين الإخراجين إذ كل واحد منهما إعادة للشئ بعد إنشائه)^(١) .

ولقد تكرر هذا الربط بين الحسى المشاهد والمعنوى المغيب فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم . وكانت الصورة الحسية التى تبدأ (بالرياح) المبشرة بالنعيم والخير مدخلاً الى تأكيد المعنى العميق وراء المشهد المحسوس كله . . ويصبح الموقف كله تدليلاً بالصورة والحركة والمعاينة على البعث والإحياء فى الآخرة .

يقول ابن كثير (وهذا المعنى كثير فى القرآن ، يضرب الله المثل ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ، ولهذا قال . . لعلكم تذكرون)^(٢) .

ولقد وشت الألفاظ المكونة للحركة والصورة بالدلالة الدينية فى إيقاع منسجم فألفاظ الصورة الكلية اولى هى : الرياح — سحب — ماء — أرض موات — ثمرات . .

أما الدلالة الدينية فوشى بها لفظ (نخرج الموتى) أى البعث . ولعلنا نلاحظ أن حركات التواصل فى النماء على الأرض ، مفصلة فى حركة الحياة . . من حيث التطويل ، والتجزئ والتتابع السببى . . الذى

(١) الكشف جـ ٢ ص ٦٦ .

(٢) مختصر ابن كثير . محمد على الصابونى جـ ٢ ص ٢٧ .

يغلفه جميعا قدرة الله ورحمته .

أما الدلالة الدينية فقد جاءت قصيرة، موجزة، حاسمة لا تحتاج إلى شرح أو تجزئ أو تطويل . فدلالة القدرة على البعث لاح منها دلالة القدرة على الحياة في الأرض . .

(وإن القدر الذى يَجْرِى بإخراج الحياة من الموات فى الدنيا، لهو ذاته القدر الذى يُجْرِى الحياة فى الموتى مرة أخرى . . والناس ينسون هذه الحقيقة المنظورة، ويغرقون فى الضلالات والاهام)^(١)

وهكذا رأينا كيف قامت كلمة «الرياح» بهذا الدور المبشر بالنعمة والرحمة فى حركة قدرية متواصلة، وكيف كانت مفتتح الحياة الحسية والمعنوية معاً .

. . ولنأخذ نموذجاً آخر يوضح الدلالة المعنوية القرآنية لاستخدام كلمة «الرياح» وكذلك الربط بين المشهد المحسوس والمعنوى المغيب .
قال تعالى : ﴿والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾^(٢) .

. . الآية الكريمة وردت فى سورة فاطر . وهى سورة لها نسقها الخاص فى الموضوع والسياق العام . وهى ذات إيقاعات مؤثرة تهز القلب البشرى وتوقظه من غفلته وهويتأمل هذا الكون الفسيح ويتدبر قدرة الله وآياته المبثوثة فيه . وتستمد هذه الإيقاعات الموحية اتساقها من ينايع الكون وهى تنطبع على صفحة القلب فى مجتلى بصرى محسوس فهذا الكون الهائل تتجلى فيه يد القدرة الإلهية . . وما الآية التى نحن بصدددها

(١) الظلال جـ ٣ ص ١٣٠٠ .

(٢) سورة فاطرة آية ٩ .

إلا جزئية صغيرة من هذا الكون .

فنحن أمام مشهد محسوس نرى فيه بعين البصر الرياح المرسلة ، وهى ليست أية رياح وإنما هى الرياح التى تحمل فى حركتها الخير . والنعمة . . وتتحرك فى جنبات الكون الفسيح فتحمل مع كل حركتها أولى بشائر الرحمة الإلهية . . وهى تثير السحاب ، تجمععه وتكثفه ، وتدفعه إلى بلد ميت ، شاء الله له أن تدب فيه الحياة . وكما أحيا الله الأرض يحيى الموتى من القبور .

ولعل الارتباط بين الحسى والمعنوى واضح تماماً كما أدركناه فى الآية السابقة .

كما أن الهدف من هذا الربط يتمثل فى لفت الذهن من المحسوس المشاهد الذى لا يختلف عليه أحد . . إلى المعنوى المغيّب الذى يتجادل الناس حوله .

(روى الإمام أحمد عن أبى رُزين العقيلي قال : قلت يارسول الله : كيف يُحيى الله الموتى ؟ . وما آية ذلك فى خلقه ؟ . فقال : (أما مررت بوادى أهلِكَ مُحمِلاً ، ثم مررت به يهتز خَضراً ؟ . قلت : نعم يارسول الله . قال : فكذلك يحيى الله الموتى ، وتلك آية فى خلقه) (١) .

وهكذا تهتز الأرض وتربو وتخرج من كل زوج بهيج بعد موات وجذب . وكانت الرياح هى فعل الخير ول الذى ساق النعيم معه . . وهذا المشهد يتردد فى معرض دلائل الايمان الكونية فى القرآن لأنه واقع ملموس ، ولأنه يهز القلب حين يخترقه الجمال ، فيسعى إلى تلمس

(١) صفوة التفاسير ج٢ ص ٥٦٧ .

المشاعر النيرة وراء المشهد بما يحمله من بهجة وزينة وثمر . . وبما يوحي به من عقيدة البعث التى لا تحتاج إلى مكابرة جاهل أو عناد مشرك غافل .
(والقرآن يتخذ موحياته من مألوف البشر المتاح لهم ، مما يمرون عليه غافلين . وهو معجز معجب حين تتملأه البصائر والعيون)^(١) .

ونلاحظ فى الآية وصف الرياح بالإثارة ، كما وصفت فى الآية السابقة بالبشرى . . فتحددت الدلالة فى الأولى تحديداً واضحاً ، مما استدعى التفصيل والتجزئ . أما فى الآية التى نحن بصددھا ، فلمس إيجازاً واضحاً فى متواليات حركة النمو . . حيث تحددت فى جزئيات ثلاثة رياح / سحب / إحياء الجذب . . وكأنها الآية تسرع لتأكيد الفكرة الدينية التى تسعى إلى إبرازھا الآية . . وهى «النشور» . . ومن ثم جاءت «النشور» بالمعنى المراد تماماً . . وهو البعث — فى حين كان إخراج الموتى — صورة فعلية حركية تحدد المراد أيضاً وهو البعث . . وفى مجال دلالة الماضى والمضارع فى الآية . . من حيث إن . . المضارع «تثير» توسط بين الماضى فى «أرسل» و«أحيينا» . . يقول صاحب الكشف . مبرراً هذا التناول فى زمن الفعل ، فبين أنه جاء على هذا الوضع (ليحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية ، بحال تستغرب أو تهتم المخاطب)^(٢) ولا شك أن إرسال الرياح وسوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد الجذب من الدلائل على القدرة الإلهية الباهرة ، فتلاءم زمن الماضى معها من

(١) الظلال ج ٥ ص ٢٩٢٩ .

(٢) الكشف ج ٣ ص ٢٦٩ .

حيث الإرسال والإحياء ، ذلك لأنه أدخل في الاختصاص وأدل عليه . .
ومن ثم يتحدد التشبيه (كذلك النشور) وتكشف الدلالة الدينية
العميقة وراء المشهد ككل .

كما أن لفظ «يثير» يوحى بملحظ علمى يرى أن حركة الرياح بين
السخونة والبرودة وبين حركتها الصاعدة والهابطة وسيلة لتكثيف
البخار، وتثقيله سحباً ممتلئاً بالماء ، يتساقط لتكتمل دورة الحياة من
جديد . . رياح ، سحب ، ماء ، أرض . . وهكذا . .

. . ومع أن الآيتين قد ربطت بين الحسى والمعنوى وأبرزتا دلالة
الخير والنعمة والرحمة إلا أن كلمة «الرياح» قد تأتى دون أن يكون هناك
هذا الربط ، بل تكتفى بدلالة المعنى فيها . .

قال تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ
رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾^(٣) .

فى آية الحجر توضيح لفعل الرياح وأثره العميم على الناس . فالماء
نعمة كبرى أنعم بها الله على مخلوقاته . ودور الرياح فى إحداث هذه
النعمة لا ينكر . والرياح تنطلق وفق نواميس كونية ، حاملة الماء وفقاً لها

(١) سورة الحجر الآية ٢٢ .

(٢) سورة الروم الآية ٤٦ .

(٣) سورة الفرقان الآية ٤٨ .

أيضا، ثم يتساقط الماء، فيعم الخير. ويصير هذا الماء الساقط من السحاب الملقح، ماءً عذبا صالحا للشرب والسُّقيا.

ثم تظهر الآية القدرة الالهية في خزنه وحفظه وعجز البشر عن ذلك. . فنعمة الماء التي بشرت بها الرياح وأحدثتها انها هو قدر الخالق الذى أبدع خلقه.

ولعلنا نلاحظ حَصَرَ النعمة في الماء. . وهنا ملحظ علمى وراء تعبير «الرياح لواقح» فهى تشير إلى تلقيح السحابة السالبة بالسحابة الموجبة. فالملاقحة هنا بين سحاب وسحاب ينتج عنها كهرباء. . فكأن الملاقحة وسيلة لتكثيف السحب ثم انهارها. . وتلفتنا الآية إلى أهمية الرياح في حركتها وهبوبها في تلقيح النباتات — وكل ذلك نعم إلهية. وتسيير الرياح للسحاب المبشر بالخير، تصاحبه دلالات أخرى، منها إفادة الكائنات الحية من التسيير. فاللقاح ينتج الماء، كما يساهم في إخصاب البذور والنباتات والزهر. فيبدو الجمال والمنفعة معاً (آية الروم) فيتذوق الإنسان جمال الكون والطبيعة ويذوق من خيراتها الحسية ما يتمتع به ويسعده. كما تعطى الآية ذاتها نعمة الحركة والتواصل والانتقال بفعل الحركة المنبعثة من هبوب الرياح. فتمخر السفن البحار في حركة دائبة. . فيحقق الناس ما يحبون مما يتوجب شكرهم على نعم الله.

. . وقد يعطى السياق القرآنى دلالة مغايرة للمعنى المراد. . فتصبح الرياح وقفا على حركتها الذاتية إذ تعطى المعنى الحسى وهو الحركة. . مجرد الحركة. . وهى نعمة تقف وراء حركة التسيير كلها. . برغم تجرد السياق من نعم أخرى كالطر والإخصاب والإحياء المرتبطة بالرياح.

قال تعالى : ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾^(١).

يهدف القرآن الكريم من خلال استخدام التشبيه إلى التصوير والتأثير معاً . ومفردات الصورة الجمالية هنا مستقاة من الطبيعة بعناصرها المختلفة . والدقة في التشبيه تعطى للمعنى وضوحاً وتأثيراً نفسياً قوياً .
والصورة التي أمامنا تتناول حال الدنيا الفانية بحال النبات وقد جف فأضحى هشيماً تطيره الرياح .

ولكن «الرياح» كعنصر فاعل في الصورة يعطى سرعة الحركة الدالة على سرعة الزوال والتلاشي . فإذا كانت الرياح سابقاً عنصراً بناءً للحياة في بهجتها ونمائها وجمالها ، فهي هنا تحمل دلالة تلائم السياق العام الذي تضمنته الصورة الجميلة .

فالمشهد الطبيعي كله مشهد سريع لا يستغرق الطول أو التفصيل . ولكنه قصير كأنه يمر أمام العين كلمحة . . تلك اللمحة التي تتأكد باختزال الصورة لكل أنواع التفصيل والتجزئ وتجردها من مكونات الصورة بامتدادها الزماني وتراخيها في التتابع الزمني والمكاني . . والإبقاء على العناصر الملائمة للهدف الديني . . وهو سرعة زوال الحياة وفنائها .

فالماء ينزل . . نزولاً حركياً يتلاءم مع الحركة الكلية للصورة . والنبات يختلط بمجرد اختلاط في حركة تداخل ، تعطينا النتيجة فجأة باختزال حاسم للحركة في الزمن . لنصل الى النتيجة وهو الهشيم . .

(١) سورة الكهف الآية ٤٥ .

ليأتى دور الرياح فى حركة حاسمة مقصودة قوية تذروه هباءً . فالسياق كله حركة ، ومن ثم حملت الرياح معنى الحركة فقط . . وساهمت فى معنى القصر وسرعة التلاشى . وبيان قدرة الله على الإفناء والإحياء ، لا يعجزه شىء فى الأرض أو السماء .

يقول الزمخشري فى توضيح الصورة التشبيهية «شبه حال الدنيا فى نضرتها وبهجتها ، وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارفاً ثم يبيج فطيره الرياح كأن لم يكن»^(١) .

ولقد توافر للصورة التعبيرية كل عناصر الجمال التعبيرية من صدق ودقة وجمال فنى ، وبرز الجمال الفنى فى دقة التعبير عن السرعة الخاطفة المثيرة لمدرجات الخيال .

«وقد استخدم النسق اللفظى فى تقصير عرض المشهد كما استخدمت وسائل العرض الفنية لهذا الغرض . فهذا «التعقيب» الذى تمثله هذه «الفاء» فى تتابع المراحل ، يتفق مع طريقة العرض السريعة . ثم هذا الماء النازل لا تختلط به الأرض فتنبت ، بل يختلط به نبات الأرض مباشرة . وهذه حقيقة ، ولكنها حقيقة تعرض فى الوضع الخاص الذى يحقق السرعة المطلوبة»^(٢) .

وأما كلمة الريح فقد وردت فى السياق القرآنى واشية بمعنى عام محدد صاحبها فى الإنسان التى وردت بها . . وهو معنى غالباً مايرد فى مقام العذاب . والتخويف . . إنه كلمة تحمل الخوف ، والشر ، والدمار ، تسلط على الجاحدين فتحيلهم الى أعجاز نخل خاوية .

(١) الكشف جـ ٢ ص ٣٩٢ .

(٢) التصوير الفنى — سيد قطب ص ١٢٩ .

«ان ريح الشر، تهب مدمرة عاصفة، لاتهدأ، ولاتدع الناس يهدأون، فهي لاستمرارها ريح واحدة، لايشعر الناس فيها بتحول ولا تغير، ولا يحسون بهدوء يلهم بها، فهي متصلة في عصفها وشدة تحطيمها، وذلك مصدر الرهبة منها والفرع»^(١).

.. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخْلٌ خَاوِيَةٌ﴾^(٢).

وسورة الحاقة يتلقاها القلب البشرى بهزة نفسية عميقة، فيها الهول الذى يفرغ النفوس، بمشاهده المتوالية. وأسلوب الصورة يحاصر الحس ويحتويه. . ونحن أمام مشهد يرمى بالرعب فى القلوب، وجاءت الألفاظ موحية بكل هذا الرعب، وبدت الصورة الخيالية أكثر تجسيدا وإبانة. .

فهاهم قوم هود — عاد — قد أهلكهم الله سبحانه بالريح العاصفة ذات الصوت المدوى ولقد تجاوزت بعثوها الحد فى الهبوب والبرودة. واستمرت هذه الريح متتابعة حتى أحالت القوم جيها متآكلة كأنهم أصول نخل خاوية.

قال المفسرون: كانت الريح تقطع روءسهم كما تقطع رؤوس النخل، وتدخل فى أديبارهم حتى تصرعهم، فيصبحوا كالنخلة الخاوية الجوف.

ومصرع عاد مشهد حاضر شاخص يصاحبه هول مروع يسيطر على

(١) القافلة عدد جمادى الآخرة ١٤١١. دلالات الالفاظ القرآنية د. حامد صادق.

(٢) سورة الحاقة الآية ٦، ٧.

جنباته، وكانت السيادة في المشهد للريح العاصفة المزمجرة التي أتت على كل شيء . . . ومن ثم تأكد معنى التخويف والعذاب والنقمة التي تشي بها كلمة الريح، فأعطت للمشهد حيويته وهوله معاً.

«إنه مشهد حي، ماثل للقلب، ماثل للعين، ماثل للخيال»^(١).

ويتأكد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصرا في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾^(٢).

فالريح العاصفة شديدة البرودة والهبوب تحمل العذاب لعاد . . . في يوم مشئوم دائم الشؤم فلم يبق أحد الاهلك .

قال الخازن: كانت الريح تقلعهم ثم ترمى بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم وتفصل رؤوسهم من أجسامهم فتبقى أجسامهم بلا رؤوس كعجز النخلة الملقاة على الأرض^(٣).

وجرس اللفظ في الآية الكريمة يصور نوع الريح في عنفها وبرودتها وعصفها الشديد .

والريح التي أرسلت على عاد هي من جند الله، وهي قوة من قوى هذا الكون تسير فوق الناموس الكوني، يسلطها الله على من يشاء وفق أداء كوني يتلاءم مع المشيئة الالهية . .

والتشبيه يصور عذاب الله تعالى تصويراً مشهوداً وكانت «الريح» الأداة الفاعلة . لقد انتزعتهم كما تنزع جذور نخل غاصت في أعماق الأرض . . فأحدثت للتشبيه هوله وبريقه وعنفة (هذا بريق التشبيه

(١) الظلال ج٦ ص ٣٦٧٦ .

(٢) سورة القمر الآية ١٩، ٢٠ .

(٣) صفوة التفاسير ج٣ ص ٢٨٦ .

المرد الذى يصور ماينزل بالمشرىكى الذىن طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد(١).

وترد كلمة «الرىح» فى سىاق تشبیهى یعقد علاقة حمیمة بین المعقول المعنوى و بین المحسوس المشاهد . . ویصبح للكلمة الدور الفاعل فى إبراز هذا المعنى الدینى المقصود . . ولا تتخلی الكلمة عن دلالتها المقصودة . . وهو الإهلاك والتدمیر . .

قال تعالى : ﴿ مثل ما ینفقون فى هذه الحیاة الدنیا كمثل رىح فىها صرأصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم یظلمون ﴾ (٢).

فالرىح تحمل الدمار والهلاك للحرث والزرع والضرع حتى تحمله الى هباء . ومن ثم تساهم بحركتها العاصفة الباردة الشدیدة فى إبراز المعنى المراد ، وهو أن العمل المبذول — وإن ظنه الكافرون خیراً — لا یؤتى ثمره مالم یكن نابعاً من الإیمان وموصولاً به . «واللفظة ذاتها كأنها مقذوف یلقى بعنف فیصور معناه بجرسه النفاذ» .

وقریب من هذا الأداء التصویرى الجمیل قوله تعالى : ﴿ مثل الذىن كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الرىح فى یوم عاصف لا یقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعید ﴾ (٣) .

فأعمال الكافرىن وإن جاءت تحمل الرغبة فى الخیر ، أعمال محبطة ، لافائدة ترجى منها ، ولا یعود على أصحابها ثواب أو جزاء ، مثلها فى

(١) القرآن المعجزة الكبرى محمد أبوزهرة ص ٢٤٨ .

(٢) سورة آل عمران الآیة ١١٧ .

(٣) سورة إبراهیم الآیة ١٨ .

ذلك مثل الرماد الهش الذى لا يصمد أمام قوى الريح العتية فيتلاشى هباءً منثوراً .

ولقد صورت الآية هذا المعنى الدينى تصويراً حسياً جميلاً يثير مدارك الخيال ، لنقف على حالة الضياع والتلاشى بفعل الريح العاصفة وهى تذرو الرماد وتذهب به برداً .

وتغيرت دلالة «الريح» . . فى سورة الأحزاب . . حيث كانت نعمة على المسلمين ، ونقمة على الكافرين . . وهى فى مجال النعمة لاتزال تحمل المعنى الأصلى للتخويف وبث الهول والدمار .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^(١) .

والآية تذكر المؤمنين بفضلهم وإنعامه عليهم فى غزوة الأحزاب ، حيث حشد الكافرون جنودهم صوب المدينة ، فاشتد الخوف بالمؤمنين وظنوا ظنوناً كثيرة ، ولاح النفاق فى قلوب المنافقين حتى قال بعضهم : يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط . ويدرك الله المؤمنين برحمته فيرسل على الأحزاب ريحاً شديدة عاصفة قلعت البيوت ، وكفأت القصور ، وألقت من شدتها بالرجال على الأرض ، كما أرسل الملائكة فزلزل الكافرون زلزالاً شديداً .

لقد كانت الريح عنصراً حاسماً فى المعركة فكانت نعمة ، ونقمة فى آن واحد .

وجاء لفظ الريح نكرة «ريحاً» وهذا التنكير يفيد التعذيب العام المصاحب للكلمة مع ما يصاحبه من دلالات أخرى كالتخويف ،

(١) سورة الأحزاب الآية ٩ .

والإهلاك والتدمير. ولتأخذ في سياق المعركة دورها الفاعل كأحد العناصر الفعالة في الحرب، ولتصبح جُنداً من نوع آخر. وتلاءم هذا التنكير مع «جنوداً لم رتوها» وهم الملائكة، والذي يفيد أيضاً التعظيم، والتهويل، والتخويف، وذلك كله إشعاعات نابغة من موقف الحرب والعراك، ومتناسقة تماماً مع السياق والنسق العام.

وقد ترد الريح في معنى النعمة فقط. ومن ثم تنسلخ اللفظة انسلاخاً تاماً من المعنى الدلالي الذي اتخذته، كما رأينا سابقاً، ولكن ذلك يأتي في مجال الإرادة الإلهية حين تمنح رسولاً من الرسل ميزة يتفرد بها. . فتصبح «الريح» إحدى المنظومات الكونية التي سخرها الله لرسوله. وهذا التسخير إنما هو توظيف للقوة في مجال النعمة، وتسخير لأداة التدمير في مجال الفضل والمنّة. وهذا تغيير لمفردات طبيعية بفعل الإرادة الإلهية. .

وهذا أبين للنعمة وأظهر للمنة (فإن الشيء إذا توقع منه الشر والأذى، ثم اقترن ذلك بالنفع والخير، كان المن به أعظم، والإنعام فيه أظهر، بخلاف ما كان مظنة خير ورحمة، فإنه وإن كان مبهماً، إلا أنه لا يصل إلى إبهاج ذلك الذي توقع الشر منه، حيث يكون مصدر نعمة)^(١).

قال تعالى: ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر﴾^(٢).
وقال تعالى: ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾^(٣).

(١) القافلة. . مصدر سابق.

(٢) سورة سبأ الآية ١٢.

(٣) سورة ص الآية ٣٦.

.. لقد سخر الله لسليمان الريح تقطع به المسافات الشاسعة في ساعات معدودات تحمله مع جنوده فتنتقل به من بلد الى بلد . . وتنوعت الدلالة في آية ص بالقيد الذى ورد وهو رخاء . . فالرخاء لغة هى الريح اللينة، والمعنى يتضاد مع العصف الشديد . والرخاء — سياقاً — الانقياد حسب الإرادة والمقصد . وهو مأخوذ من معنى التسخير الذى من الله به على سليمان عليه السلام . والمعنى أن الريح تسير بأمره منقاداً لينة طيبة حيث قصد وأراد . إلا أن «تسخير الريح لعبد من عباد الله بإذن الله ، لا يخرج في طبيعته عن تسخير الريح لإرادة الله . وهى مسخرة لإرادته تعالى ولا شك تجرى بأمره وفق نواميسه . فإذا يسر الله لعبده من عبادته فى فترة من الفترات أن يعبر عن إرادة الله سبحانه وأن يوافق أمره أمر الله فيها ، وأن تجرى الريح رخاء حيث أراد ، فذلك أمر ليس على الله بمستبعد»^(١) .

كما أن الريح قد يتحدد معناها المغاير للمعنى الأصلية بصفة تحددها ، بحيث يتلاءم المعنى مع السياق العام^(٢) .

قال تعالى : ﴿هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾^(٣) .

فالريح الطيبة هى الريح اللينة الطرية التى تساعد على تسير

(١) الظلال ج ٥ ص ٣٠٢٠ .

(٢) انظر تفصيل آيات القرآن ص ٥٠٥ .

(٣) سورة يونس الآية ٢٢ .

السفن في هوادة واطمئنان ، الأمر الذى يستدعى الفرح والشعور بالأمن .
ولكن سرعان ما يتغير المشهد إلى عنف وقصف وموج وخوف ،
فيعود للريح مرة أخرى الدلالة المصاحبة لها وهو التخويف والتعذيب
والإهلاك . . . والتدمير مما يوحى بالهلاك والموت ، فيتحول الأمان إلى
خوف ويتوجه القوم إلى الله أن ينجيهم من هذا الكرب .

وما بين الفرح والخوف — الريح الطيبة والريح العاصفة —
يتحدد نموذج بشرى ورد ذكره كثيراً في القرآن . . . إذ تتحدد الطبائع بعد
تذوق رحمة الله بعد الضر . . . وحين يصيبهم الضر ثم ينجون منه . . .
ويبرز هذا النموذج عبر مشهد قوى من مشاهد القرآن التصويرية . إنه
مشهد حى تراه العيون وتتابعه المشاعر وتحقق معه القلوب . ولقد قامت
حركة الريح بهدوئها وعصفها بدور فعال في إبراز ذلك كله .

الفصل الثانى :

● التنوع والوحدة .

فى إطار المشهد التصوىرى الذى يشع جمالاً وجلالاً — وهو جانب
تصوىرى هام فى القرآن الكريم — تتضح عناصر البناء وهى تتلاصق أو
تتضاد أو تتوازى ثم تلتحم العناصر جميعها مكونة من الشكل العام
للمشهد أو الوحدة الكلية التى تحتويه . وكل عنصر من عناصر البناء
يحمل دلالاته الخاصة التى تنامى فى انسجام مع دلالات العناصر
الأخرى : بحيث يعطى الجزء دوره الفاعل فى إتمام الصورة المشهدية
الكلية . ومن ثم يبرز من خلال المعنى العام هذا التوافق الموجود بين
العناصر، فتشكل العلاقة القائمة بين الجزئيات مما يترتب عليه تحقق
الانسجام، وتتأكد الوحدة فى المشهد والصورة . والجمع بين الأشكال
والجزئيات والدلالات وسيلة لتحقيق الوحدة . ومتى توفر ذلك فسوف
يتيح للمتأمل أن يرى الصورة والمشهد ككل للوهلة الأولى ثم يتدرج نحو
رؤية الجزء . وحين تتحقق الوحدة عن طريق الفكرة والأداة التعبيرية
تكون فى أوج قوتها .

فالقرآن الكريم يرسم الصورة ويعرض المشهد بحيث تتوافر له
جماليات التناسق الفنى فى وحدة المشهد التصوىرى وتوزيع أجزائه فى
توازن وتقابل دقيقين .

والوحدة التصويرية تقتضى التنويع ليتم التناسق مع الأجزاء .
(ودلالة هذا التنويع حاسمة فى أن (التصوير) عنصر أساسى فى

أسلوب القرآن وأن التعبير لا ينتهى إلى أداء المعنى الذهنى مجرداً، إنما ينبض بطبيعته بصورة حية للمعانى، تختلف هذه الاختلافات الدقيقة اللطيفة، حسب اختلاف الأجزاء والألوان^(١).

واستخدام القرآن الكريم للفظ كعنصر جزئى استخداماً فذاً يتلاءم مع وحدة السياق إذ يتحدد دور الكلمة من خلال المعنى العام الذى تحتشد كل العناصر لإبرازه، ومن ثم تتغير وظيفة الكلمة كأداة فنية تعبيرية حسب الوحدة التصويرية التى تنضوى فى إطارها العام..

وفى مجال صور النعمة التى أفاءها الله على الإنسان وردت كلمة «الأنعام» متسقة تمام الاتساق مع الوحدة التصويرية الكلية، بحيث يتنوع استخدامها الوظيفى بتنوع الوحدة الحسية فى المشهد.. ومن ثم تكشف عن المعنى المراد.

قال تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم﴾^(٢).

والأنعام — الإبل والبقر والغنم والماعز — نعمة من نعم الله. وهى إحدى النعم فى منظومة النعم الإلهية فى الكون كله.. السماء، والبحر، والبر..

والأنعام — وقد وردت فى نسيج هذه المنظومة — يتحدد معناها العام وفق النسيج كله. فهى تفيد المنفعة والجمال معاً.

فهى من حيث المنفعة — ضرورة الحياة — يستدفع بها الإنسان،

(١) التصوير الفنى فى القرآن ١١٩.

(٢) سورة النحل الآية ٥ — ٧.

فمنها يأكل ويشرب ويلبس ، كما أنها وسيلة للانتقال والعمل ، فتريح الناس من المشقة وثقل الأعباء . أما الجمال فيتبدى في زينة المنظر والاستمتاع به . .

والآيات التى وردت فيها كلمة الأنعام كلها تجمع بين المنفعة والجمال^(١) .

وآية «الأنعام» تعبر عن رحمة الله بعباده حين سخر لهم ذلك كله . وأشارت الكلمة إلى ثنائية المنفعة والجمال معاً .

يقول الزمخشري «مَنَّ الله بالتجمل بها كما مَنَّ بالانتفاع بها ، لأنه من أغراض أصحاب المواشى ، بل هو من معازمها ، لأن الرعيان إذا رَوَّحوها بالعشى ، وسرحوها بالغداة فزينت بإراحتها وتسريحها الألفية ، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء ، آنست أهلها وفرحت أربابها وأجلَّتْهم في عيون الناظرين إليها ، وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس»^(٢) .

وهذا هو دور الأنعام في حياة الناس أدته اللفظة أداءً كاملاً في سياق إبراز منظومة النعم الإلهية . فالخيل وغيرها منفعة وجمال ، وهى نعمة . والماء والشجر والزرع والنخيل والزيتون منفعة وجمال ، وهونعمة . والسماء بنجومها وسحابها وكواكبها وليلها ونهارها . . منفعة وجمال . . وهى نعمة . . والبحر ، والسمك ، واللالء والفلك والموج . . منفعة وجمال . . وهونعمة . . ويمضى السياق طويلاً في إبراز هذه الوحدة الكلية التى تبرز النعمة الإلهية الكبرى التى أنعم الله بها على البشر . . بحيث تكشف مع المنفعة الجمال والتذوق . . وتتضافر عناصر الوحدة في

(١) انظر النحل آيات ٥ — ١٨ .

(٢) الكشف ج ٣ ص ٣٢٢ .

السماء والبر والأرض لإبراز هذا المعنى ، فتصبح المفردات عناصر بنائية لإبراز هذا المشهد الكوني الهائل ، من حيث تناسق النواميس في الكون كله ، ولينتهى السياق الطويل بتذكير الله للبشر بنعمه التي لا تعد ولا تحصى . (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم) (١)

والآيات تستعرض خلق الله الذي سخره للإنسان ، وبدأت بالأنعام لما لها من أهمية في حياة البشر ، فلا حياة بدونها لبنى الانسان .

والقرآن وهو يعرض هذه النعمة ينبه إلى ما فيها من تلبية لضرورات البشر ، وتلبية لحاسة الجمال «فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة ، وليست النعمة هي مجرد تلبية للضرورات من طعام وشراب وركوب ، بل تلبية لأشواق الزائدة على الضرورات . تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنساني المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان» (٢) .

وهذه النعم — بما فيها نعمة الأنعام — مدعاة إلى التأمل والتفكير في تدبير الله ، وفي نواميسه المسخرة لحياة البشر ، ودلالة ذلك كله على الخالق وعلى وحدانيته وهو المعنى الدينى العميق الذى يكشف عنه السياق كله .

● وعبرة أخرى للأنعام تشير إلى عجيب صنع الله . إذ وردت الكلمة في سياق آخر من النعم تضمنته الآيات ٦٦ — ٦٩ «النحل» وهذا السياق يدعو إلى تفهم العبرة في النعمة ، وإلى تأمل قدرة الله وتدبيره .

قال تعالى : ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه من

(١) سورة النحل الآية ١٨ .

(٢) الظلال ج ٤ ص ٢١٦١ .

بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين»^(١).

والسياق الذى وردت فيه «الأنعام» سياق تحول واستخراج، وعمليات امتصاص وتحويل واحتراق، ثم إفراز سائل جديد يحمل سمات خاصة وطعماً مميزاً.

فالجهاز الهضمى يقوم بهضم الغذاء وامتصاص الصالح منه، وهذا الجزء الصالح منه يذهب إلى الدم فيختلط به، والجزء الآخر يتحول إلى روث وهو الفرث. والدم يغذى الغدد التى منها الغدد اللبينة (ضرع الحيوان) المنوط بها إفراز اللبن. . فقدرة الله بارزة فى شطر الطعام شطرين الدم والفرث وأخرج من بينهما اللبن خالصاً من كل شائبة، ناصعاً طاهراً، لم يؤثر فيه لون الدم أو قذارة الفرث^(٢).

والآية بيان للعبارة فإن الله سبحانه يخلق اللبن «وسطاً بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله، لا يغى أحدهما عليه بلون، ولا طعم، ولا رائحة. . . فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل»^(٣).

ويمتد مشهد الأثرية فى السياق كله. . فالسَّكر «العصير» يستخرج من الثمار. فمن ثمرات النخيل والأعناب، يتخذ الناس منه السَّكر والزرق الحسن، يأكلون بعضه ويتخذون من بعضه سكرًا.

وعسل النحل شراب جعله الله شفاء للناس، يخرج النحل خلاصة لما يتغذى به. فالعسل يختلف لونه باختلاف الأزهار التى

(١) سورة النحل الآية ٦٦.

(٢) انظر معجزة القرآن — نعمت صدقى ص ٧٣١٧٢.

(٣) الكشف ج ٢ ص ٣٣٤.

يرتشف النحل رحيقها . والعسل هو الغذاء الوحيد المعقم طبيعياً .
وذلك بعد أن تطبخه النحلة في مطبخها العجيب .

وعن عبد الله بن مسعود «العسل شفاء من كل داء . والقرآن شفاء
لما في الصدور . فعليكم بالشفائين : القرآن والعسل» .

إننا أمام وحدة من النعم متناسقة . . فالسياق يرسم مشهداً
لاستخراج الأشربة ، اللبن ، السكر ، العسل . .

ولقد أدت لفظة الأنعام دورها في هذا السياق التصويرى حيث
عرض المشهد التصويرى جانباً من الأنعام يلائم الأشربة التى هى
عناصر هذا المشهد فى وحدته التصويرية الكلية . .

وتوافقت جزئيات الصورة فأحدثت هذا التناسق الجميل بين
العناصر من حيث حركة الفعل الباطنية المخالفة للهئية الخارجية ، فثمة
سكر وشراب يتخلص من ثمار تختلف فى الهئية والطبيعة عن السكر .
والعسل يُستصفى من الازهار المخالفة فى هئيتها وطبيعتها للعسل . .
ومن ثم كان اللبن المستخرج من فرث ودم ، وهما مخالفان فى هئتهما
وطبيعتهما للبن .

«ألا انه الابداع هنا فى وحدة الاجزاء ودقة التصوير ، وتناسق
الايخراج»^(١) .

إنها كلها أشربة تخرج من أجسام مخالفة لها فى شكلها . . ولما كان
الجو جوأشربة فقد عرض من الأنعام ما يلائم ذلك وهو اللبن .

● وردت الأنعام فى سورة «المؤمنون» كعنصر من عناصر الوحدة

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٢٢ .

الكلية التى تنتظم نعم الله وفضله . كخلق الانسان وخلق السموات وإنزال الماء وإنبات النخيل والاعناب والزيتون ، ثم نعمة الانعام بما تتضمنه من العبرة المستفادة من إدراك اللبن ومن المنفعة التى تتحقق منها .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (١) .

لقد جمعت آية (المؤمنون) بين المنفعة والعبرة ، ووردت فى سياق منظومة النعم فى تناسق بديع .

فالبطن السائغ هو شراب للناس وغذاء لهم فضلاً عن المنفعة المرتبطة بحياة البشر . ويرى صاحب الكشف أن فى الأنعام منفعة زائدة (وهى الأكل الذى هو انتفاع بذواتها ، والقصد بالأنعام إلى الإبل / لأنها هى المحمول عليها فى العادة وقرَّنها بالفلك . .) (٢) فالسياق ربط بين الأنعام والفلك إذ هما مسخران بنظام كونى خلقه الله لخدمة البشر ومن ثم تتحقق العبرة لمن يتأمل قدرة الله وفضله فى الكون .

. . . كما تتنوع الدلالة لتتلاءم مع وحدة كلية ذات نسق عام . فهى وإن دلت على تعدد المنافع المرجوة من الأنعام إلا أن الجزئية تتناغم مع غيرها من مكونات الوحدة وعناصرها البنائية .

فهى تأتى فى مجال الدلالة الدينية التى تتحدث عن طبائع الإنسان وموقفه من النعمة ، وجحوده لها ، وهى دلالة متكررة فى مجال تذكير الإنسان لنعم الله عليه وغفلته وجحوده عن هذه النعم .

(١) سورة المؤمنون آية ٢١ .

(٢) الكشف جـ ٣ ص ٤٥ .

قال تعالى: ﴿يعرفون نعمة الله ثم يُنكرونها وأكثرهم الكافرون﴾^(١). وتأتى «الأنعام» فى سياق بناء كامل يمثل السكن والإيواء والحماية . . وتنوعت مفردات الوحدة لتقيم هذا البناء فى تناسق فريد، كل جزئية تتلاصق وتتنامى . . . حتى تصنع هذا البناء الشامخ وهو يلقى بظلال الأمان والسكنية . .

قال تعالى: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكنناً وجعل لكم سراييل تقيكم الحروس سراييل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾^(٢).

والمشهد الذى تصوره الآيات يتناول البيوت والأمتعة ومخابىء الجبال والسراييل، والجلود المأخوذة من الانعام وكذلك ظلال الاشياء .

والحديث عن البيت حديث خاص، إنه البيت الذى يشى بالسكن والطمأنينة، ويمس مشاعر الانسان من حيث . . السكنية النفسية — والطمأنينة القلبية. ولأن المشهد وحدة كلية واحدة، تتمثل عناصرها فى البيوت والأكنان والسراييل . . «فإن السياق يعرض من الانعام جانبها الذى يتناسق مع مفردات المشهد»^(٣).

إن فى البيت لسكناً، وفى الظلال راحة للنفس من وقدة الحر، وفى الأكنان والكهوف أمان وحماية، وفى السراييل وقاية للجسد من الحر

(١) سورة النحل الآية ٨٣ .

(٢) سورة النحل الآيات ٨١ — ٨٢ .

(٣) الظلال ج ٤ ص ٢١٨٧ .

والحرب معاً . . وهى كلها مفردات تشى بالأمان النفسى والراحة
القلبية . .

ومن ثم كان من طبيعة بناء الوحدة الكلية أن تتلاءم الأنعام مع
هذا المشهد التصويرى ، فأخذ السياق منها مايفيد ذلك . . فمن جلود
الأنعام وصوفها ووبرها وشعرها تصنع الخيام ، والقباب والبيوت . .
تضفى الحماية والطمأنينة وهى أيضا سهلة الحمل فى التنقل والإقامة . .
كما أن الناس يلبسون من الصوف والوبر والشعر الملابس والسراويل كما
يتخذون منها الأمتعة يفرشون بها مساكنهم ، وكذلك الأثاث الذى
يريحهم ويمتعهم .

وكل هذه المفردات مما يلاذ به أو يحتفى ، أو يستظل ، أو يستتر ،
فالمنظر كله أبنية وأردية وظلال .

● ووردت كلمة «الإبل» فى سورة الغاشية فى إطار عام عن
الوحدانية والقدرة ودعت الآية إلى النظر إلى الإبل نظراً اعتباراً ، إذ خلقت
خلقاً عجباً دالاً على تقدير الله وتدبيره ، إذ جعلها تفى بحاجة الإنسان فى
كل حالة . (وعن سعيد بن جبير قال : لقيت شريحاً القاضى فقلت : أين
تريد؟ قال : أريد الكناسة . قلت : وما تصنع بها؟ قال : أنظر إلى الإبل
كيف خلقت؟

ولقد تناولت الآية الأدلة على وحدانية الله وقدرته ، متمثلة فى خلق
الإبل وخلق السماء ، والجبال ، والأرض . . وكلها شواهد ملموسة على
جلال سلطانه وعظيم قدرته ، وجميل تدبيره .

قال تعالى : ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء
كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نُصبت . وإلى الأرض كيف

سُطِحتُ ﴿١﴾ .

لقد طالبت الآيات البشر أن ينظروا إلى بديع خلقه . إلى الإبل وكيف خلقها الله على هذه الصورة البديعة؟ وذلك لإدراك عظمة الخالق والنعمة التي أنعم بها على خلقه ، وإلى السماء وكيف رفع الله بناءها بلا عمد ، وإلى الجبال الشاهقة وكيف نصبت راسخة لا تتزلزل ، وإلى الأرض وكيف بسطها الله ومهداها . .

قال ابن كثير (نبه تعالى البدوى على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذى هو راكب عليه ، والسماء التى فوق رأسه ، والجبل الذى تجاهه . والأرض التى تحته . . على قدرة خالق ذلك وصانعه وأنه الرب العظيم) (٢) . إن الحكمة فى تخصيص هذه الأشياء بالذكر أنها مما تقع عليه عين المشاهدة .

. . ترى ما الوحدة التى تجمع بين جزئيات الخلق هذه ؟ ما الإطار المشهدى التصويرى الذى يحتضن فى داخله مفردات عناصر هذا البناء البديع ؟

فهذه الجزئيات وإن كانت تجمع أطراف بيئة البدوى إلا أنها تضم أطراف الخلائق البارزة فى الكون .

والإبل هنا — وهى نوع من الأنعام — تتضمن صفة خاصة بخلقها وتكوينها وقيمة عامة فى حياة البدوى . فالإبل حيوان العربى الأول عليها يسافر ويحمل أثقالاً ومنها يأكل ويشرب ويرتوى غذاءً كامل الفائدة ، ومن أوبارها وجلودها يلبس ويرتدى سراويل تقيه الحر والبرد

(١) سورة الغاشية آيات ١٧ — ٢٠ .

(٢) صفوة التفاسير ج ٢ ص ٥٥٣ .

ويبتنى البيوت السهلة الحمل ، وهى على ضخامة تكوينها وقوة أجسامها ذلول سهلة الانقياد ، ترعى فى يسر ، وتصبر على الجوع والعطش طويلا . . ومن ثم وجب توجيه النظر إلى تدبر خلق الإبل على هذا النحو المناسب لوظيفتها المتناسقة مع بيئتها . .

. . كما أنها تتنامى مع وحدة المشهد التصويرى ككل . ذلك المشهد الذى يلاحظ فيه هذا التكوين البديع الموحى بالضخامة ، والذى يلقى فى حس الإنسان ووجدانه الشعورى الدهشة والتعجب وتعميق النظرة المتأملة والوحدة المشهدية المصورة توحى بالتوافق الموجود بين عناصرها ، وكذلك العلاقة التى تؤكد على أنها لم تأت عبر صدفة ما ، بل حسب تدبير عظيم وسلطان جليل . . إنها توحى بعظمة الله وقدرته . ومن ثم برز الانسجام واضحا فى عناصر الوحدة حين جمعت بين هذه الأشكال المريئة . وتوفر الوحدة هنا يتيح للمتأمل أن يرى هذا المشهد رؤية كلية ثم تتدرج الرؤية نحو الجزء .

فثمة توازى فى الاتجاهات . . فهأهى السماء المرفوعة بما تشى به من امتداد لانهاى ، وبها تتزين به من أجرام هائلة . . وتلك الأرض المديدة الواسعة ، العريضة ، المبسوطة . . وهذه الجبال المركوزة على سطح الأرض وأعماقها ، وتلك الإبل الضخمة البارزة السنام ، العالية الرأس ، الطويلة الأعناق . . فالمشهد ككل يتحد فى الشكل كما يتناسق فى الحجم .

(والملاحظ هنا هو الضخامة وما تلقىه فى الحس من استهوال ، والأجزاء موزعة بين الاتجاه الأفقى فى السماء المرفوعة ، والأرض المبسوطة ، والاتجاه الرأسى بينهما فى الجبال المنصوبة والإبل الصاعدة السنام . وهذه

دقة أوجدها يد المصور المبدع في الأشكال والأحجام^(١).

لقد برز في إطار هذه الوحدة المتكاملة الحيوان المناسب في التكوين والسياق العام . . إنه الجمل أليف الصحراء الفسيحة التي تحدها السماء والجبال في مشهد جليل .

● كما وردت «الأنعام» في مجال النعمة أيضا وفي جانب محدد، وهو الاستواء . . وذلك في مقارنة بينها وبين الفلك في البحار . فكما سخر الله للبشر السفن في البحر، سخر لهم أيضا الإبل في البر وسيلة للسفر والتنقل قال تعالى : ﴿والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنّا له مقرّنين ﴾^(٢).

(وليس المراد من ذكر النعمة تصورها وإخطارها في البال ، بل المراد تذكّر أنها نعمة حاصلة بتدبير القادر العليم الحكيم ، مستدعية لطاعته وشكره ، فإن من تفكر في أن ما يركبه الانسان من الفلك والأنعام أكثر قوة وأكبر جثة من راكبه ، ومع ذلك كان مسخرا لراكبه يتمكن من تصريفه إلى أى جانب شاء ، وتفكر أيضا في خلق البحر والريح وفي كونها مسخرين للإنسان مع ما فيهما من المهابة والأهوال ، استغرق في معرفة عظمة الله تعالى وكبريائه وكمال قدرته وحكمته ، فيحمله ذلك الاستغراق على أن يقول متعجبا من عظمة الله ﴿سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرّنين ﴾^(٣)).

(١) التصوير الفنى في القرآن ص ١٢٣ .

(٢) سورة الزخرف الآية ١٢ ، ١٣ .

(٣) صفوة التفاسير ج ٣ ص ١٥٢ .

ولقد برز الاستواء كوحدة تصويرية شملت السياق العام، فثمة استواء على ظهر السفينة، حيث الاستقرار والتمكن والطمأنينة وسكينة القلب والجسد معاً. وكذلك الاستواء على ظهر الأنعام (الإبل) كمظهر للتمكن والسيطرة والاستحواذ والمتعة من جراء التنقل والتنوع والتغير. وهذه الوسائل ذللها الله وسخرها ويسرها للبشر، ومن ثم وردت هذه الصورة الكلية لتجمع بين استوائين في البحر المتلاطم، والصحراء المترامية وتأخذ من معناهما معاً، الراحة، والسكينة، وتذكر أيضاً بنعم الله. . فأضافت الصورة بذلك ملمحاً جديداً للصورة الكلية للأنعام في مجال التذكير بالنعمة.

ولعلنا نستطيع أن ندرك جانبى الصورة في البحر والبر. . وملاءمة الزوجية هنا (الفلك — الأنعام) الثنائية الصورة، بحيث تختلف في الشكل والمجال وتتفق في جوهر الهدف. وتفيض الدلالة عندما نتصور المجال في الجانب الأول بما يكتنفه من غموض وهول وتقلب وموج متلاطم، وخوف يصاحب كل حركة عنيفة، أو ريح عاصفة.

وتصبح السفينة أيضاً. . وفي الجانب الثانى تترامى الصحراء برمالها المتحركة والتموجة والمتقلبة كالبحر تماماً، فضلاً عن الرياح العاتية والحرارة العالية وتضاريس المكان بين العلو الشاهق كقمة الموجة وبين السفوح المستوية والأخاديد العميقة كانحسار الموجة وحركة الدوامات المائية. . هذه الصحراء يصاحبها الخوف والمخاطر والمهالك مما يجعل الإبل ملاذاً من نهاية مؤلمة.

ولعل هذا التصور الفرعى للدلالة كفيلاً بأن يجعل القلب البشرى يفيض بمشاعر حساسة مرتبطة بالخضوع لله، لا تغفل رضاه ونعمته

ولا تنسى رحمته .

● وترد كلمة «الأنعام» كمفردة تصويرية في إطار من الصورة الكلية التى تتناول شهوة التملك . . وهى شهوات فطرية من ينساق إليها يسقط ويتدنى .

قال تعالى : ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾^(١) .

والآية الكريمة توضح سقوط الناس حين يغترون بشهوات الحياة الدنيا، تلك الشهوات التى تحدت بمفردات منها : — النساء بما يحملن من فتنة ولذة، والبنين لكونهم قرة العين وطريقا للتواصل والامتداد، والذهب والفضة (المال) لأنه وسيلة هامة لتحقيق الرغبة وإنفاذ الشهوة، والخيول لما تتضمنه من أصالة، وحُسن، وبهاء، ومتعة، والأنعام من إبل وبقروغنم لكون الفائدة تتعدد من ركوب وطعام وزينة ثم الحرث الذى هو القوت والطعام .

والله سبحانه وتعالى (جعل الأعيان التى ذكرها شهوات، مبالغة فى كونها مشتهاة، محروصاً على الاستمتاع بها، والوجه أن يقصد تخسيسها فيسميها شهوات، لأن الشهوة مستزلة عند الحكماء، مذموم من اتبعها، شاهد على نفسه بالبهيمية)^(٢) .

والاستغراق فى شهوات الدنيا يشغل القلب عن التبصر والاعتبار ويدفع إلى الغرق فى لجة اللذة الحسية، وهذه الرغبات فطرية تؤدى دوراً

(١) سورة آل عمران الآية ١٤ .

(٢) الكشف ج ١ ص ١٧٨ .

فى حفظ الحياة وامتدادها، ولكن يجب ضبطها وتنظيمها، بحيث يصبح الإنسان مالكا لها ومسيطرأ عليها .

ففى آية واحدة «يجمع السياق القرآنى أحب شهوات الأرض إلى الإنسان وهى خلاصة للرغائب الأرضية إما بذاتها وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائد أخرى»^(١) .

ولعل الصياغة تشير إلى هذه الفطرية فى الذات البشرية، فبناء الفعل للمجهول يوحي بأن التركيب الفطرى فى الإنسان خلق وفيه هذا الميل إلى الشهوات .

والإسلام يراعى الفطرة، ويقبل واقعها ودوافعها ولكنه يحاول أن يهذب ويرفع ويتسامى بحيث لا تطفئ اللذة الحسية على «أشواق الروح» وتطلعها إلى الله .

وتنوع المفردات فى المشهد يصنع وحدة فى الصورة العامة، وتقوم كل مفردة بتلوين مساحة من المشهد، بحيث يتنوع الشكل ومن ثم يتضمن إحساسات مختلفة تتجاوز وتتمازج، وتتجاوز فتعطى للمشهد كليته . ومعناه العميق . ويتفرع عن المفردة مفردة أخرى مرتبطة بها ومتلاصقة، فالنساء والبنين يكونان وحدة فى المساحة، وكذلك الذهب والفضة، والأنعام والحرث، ثم الخيل والمعنى العميق المستخلص من المشهد يؤكد على أن كل هذه المفردات — النعم — زائلة وفانية ولا يبقى إلا الجزاء على شكر النعمة والعمل بحققها . ومن ثم جاءت الآية التالية لتبين ما هو أفضل من نعم الدنيا ومتاعها الفانى .

(١) الظلال ج ١ ص ٣٧٣ .

قال تعالى: ﴿... للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد﴾ (١).

● ثم نأتى الى الدلالة الحقيقية المتضمنة فى كلمة «الأنعام» من حيث كونها إشارة إلى الحيوانية ورمزاً عليها . تلك الحيوانية التى تحكمها الغرائز وتسدنى فى مجال الخلق والتكوين . ومن ثم يتصاحب المعنى فى مجال الحديث عن الكفرة الذين غرقوا فى متاع الدنيا ونسوا عقولهم وغفلوا عن إنسانيتهم فجحدوا بنعم الله . قال تعالى: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ (٢).

والآية الكريمة تشير إلى ان الله يعطى المؤمنين من عباده نصيباً وافراً من نعمه فى الآخرة حيث تكون الجنة من نصيبهم ، وهو نصيب يتناسب مع الإيمان ومع الصلاح ، فالتكامل فى الفعل ونتيجته تكامل ازدهى وتألق برضى الله الذى تمثل فى الجنات التى تجري من تحتها الأنهار .

أما الكفار فهم يأكلون كما تأكل الأنعام ، ويكون جزاؤهم النار مشوى ومقاماً « . . . إنهم ينتفعون بمتاع الدنيا أياماً قليلاً ، يأكلون غافلين ، غير مفكرين فى العاقبة ، كما تأكل الأنعام فى مسارحها غافلة عما هى بصدده من النحر والذبح . . . والنار منزل ومقام لهم فى الآخرة» (٣).

(١) سورة آل عمران الآية ١٥ .

(٢) سورة محمد الآية ١٢ .

(٣) الكشف جـ ٣ ص ٤٥٥ .

وطرف الموازنة قد ردت فيه كلمة الأنعام في إطار تصويرى مغاير
للاطر التصويرية التى وردت فيها الكلمة سابقا . وأعطت الكلمة عبر
السياق الدلالة الحقيقية للأنعام ، وهى الدلالة الحيوانية البحتة .

فالكافرون يتمتعون بمتاع الدنيا أكلاً وشرباً فى شراهة خالية من
التذوق والتعفف . إنهم يلتهمون المتعة ، ويقارفون الشهوة فى نهم حيوانى
خالٍ من الحس الإنسانى والجمال السلوكى ، ومفتقد للشعور الأخلاقى
القائم على التقوى ، والنظافة فى الفعل .

والصورة التشبيهية أعطت للوحدة وإطارها العام ووشت بمعنى
عميق يتناول الإنسان فى جانبه الحيوانى . . حيث (شبه الكفار بالأنعام
فى التمتع بالأكل ، فهم يأكلون عن شره ونهم كسائر البهائم ازدراءً لهم ،
وتحقيراً لحالهم ، ووصفهم بالدناءة والبطنة مما تذمه العرب وتبغضه)^(١) .

إن الحيوانية التى يرمز إليها بكلمة الأنعام ، تتحقق فى المتع الدنيوية
التى تسيطر عليها ضغوط الشهوة ، ومثيرات اللذة ودواعيها ومن ثم
تصبح الصورة تصويراً مزرياً للإنسان حين ينحط إلى درجة الأنعام .
ذلك أن الفارق الرئيسى بين الإنسان والحيوان «ان للأنسان إرادة وهدفاً
وتصوراً خاصاً للحياة على أصولها الصحيحة المتلقاة من الله خالق
الحياة . فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه» . .
ولقد أوضحت «الأنعام» الرمز الكلى للحيوانية من حيث الجنس
والدلالة .

(١) القرآن والصورة البيانية د . عبد القادر حسين ص ١٤٩ .

الفصل الثالث :

● **الأداء التصويرى.**

● **وإيقاع الفواصل.**

إن التناسق في النص القرآني الكريم، يبلغ الدرجة العليا في إحداث جماليات التصوير الفني. والإيقاع الموسيقي أحد ملامح هذا التناسق وهونائج عن ملائمة اللفظ مع النسق الخاص الذي ورد فيه، كما أنه يتنوع بتنوع الفواصل، القصير منها والطويل، المتماثل منها والمتخلف.

والإيقاع في النص القرآني الكريم قد تحرر من كل قيد يقيد المعنى، أو يحد من النظام الصوتي، مما أدى إلى حرية التعبير وامتلاك آفاق رحبة من التألف والتلازم والانسجام.

إنه إيقاع لغوي متفرد، لا يماثله إيقاع أويقترب منه، إنه إيقاع جماعي — إن صح التعبير — يقوم فيه الحرف الصوتي بدوره، والكلمة في نسقها بدورها، والجملة في سياق التركيب بدورها، والآية من خلال السورة والموقف بدورها. . والفاصلة من خلال التردد الصوتي والتكرار الإيقاعي بدورها. . إنه إيقاع منبعث من النص في تكوينه الصوتي واللفظي، يبرزه كل مكونات النص القرآني.

فهذا الإيقاع «ينبعث من تآلف الحروف في الكلمات، وتناسق الكلمات في الجمل، وممرده إلى الحس الداخلي، والإدراك الموسيقي، الذي يفرق بين إيقاع موسيقي متناسق وإيقاع مضطرب»^(١).

(١) التصوير الفني في القرآن سيد قطب ص ١٠٤.

والفاصلة القرآنية ليست قيداً صوتياً ، أو معنوياً . . كما نلمح ذلك في الشعر والنثر . فكثيراً ما وجدنا التكلف واضحاً في الشعر لحرص الشاعر على القافية وتكلفه في إيرادها ولو كان ذلك على حساب المعنى وجمال التركيب . ويبدو ذلك أكثر وضوحاً لدى الكتاب الذين يغرمون بالمحسنات اللفظية التي تصرفهم عن جمال المعنى وتبعدهم عن التناسق في التركيب . .

«والفاصلة القرآنية عنصر أساسي من عناصر اللغة الإيقاعية ، والقرآن الكريم يمتاز بحسن الإيقاع ، فتأتى الفاصلة في ختام الآيات حاملة تمام المعنى وتمازج التوافق الصوتي في آن واحد»^(١) .

* والفاصلة في القرآن هي ما تنتهي به الآية القرآنية . وهي جزء من الآية ، وعنصر تعبيرى متميز ، ومثير قوى للإيقاع . وهي — كملمح أساسى من ملامح الإيقاع الموسيقى ، والنظم الصوتى في القرآن — تنضوى على دالتين هامتين . الدلالة الأولى : وهي دلالة صوتية تتمثل في الإيقاع والرنين الصوتى ، المحكوم بنسق الآية والسياق العام . والدلالة الثانية : دلالة معنوية تحمل تمام الفكرة في الآية .

وإننا لندرك تلك الدلالة من خلال الآية التالية والتي وردت فيها الفاصلة متلائمة تماماً مع المعنى المراد . . إن المعنى الكامن في الفواصل بعد أساسى من أبعادها وغرض واضح من إيرادها المتكرر .

قال تعالى : ﴿إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

(١) مكانة الفواصل من الإعجاز — الدارة ربيع الآخر ١٤١٠ هـ .

السياق يوحى بالغفران . ولم تنته الآية بها يلائم الدلالة الظاهرة وذلك كأن تكون الفاصلة « الغفور الرحيم » . ولكنها جاءت كما وردت في الآية بياناً أن من يستحق العذاب ، فلا يغفر له إلا من كانت سلطته فوق السلطات وعزته فوق كل عزة ، ومن كان كذلك وجب أن يكون متصفاً بالحكمة . وليس كل عزيز عادلاً ، فمن الحكام من عزوا وفقدوا الحكمة . ومن ثم جاء ربط الحكمة بالعزة تعبيراً مصوراً رائعاً ، وبياناً قاطعاً ذلك أنه (ما انتهت آية قرآنية إلا بفاصلة ملائمة كل الملاءمة لمعناها ، مستقرة في قرارها ، مطمئنة في مكانها ، غير نافرة ولا قلقة)^(١) . إن ارتباط الفاصلة بالسياق أمر أساسي إذ يرتبط بالفكرة والهدف . . فهي لم تأت كحلية لفظية لا ارتباط لها بالمعنى أو اعتباره .

قال تعالى : ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمُ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ * في الحميم ثم في النار يسجرون * ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون * من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين ﴿ (٢)﴾

هذا لون من العذاب الذى يحيق بالكافرين يوم القيامة . فأيديهم تربط بالأغلال . والأغلال هى القيود التى تجمع في ربطها بين اليد والعنق . وتتدل من هذه القيود السلاسل حيث يسحبون منها إلى ماء حار ثم يحرقون في النار .

قال ابن كثير « إن السلاسل متصلة بالأغلال وهى بأيدى الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم » . ويقال لهم

(١) التعبير الفني في القرآن بكرى شيخ أمين ص ٢٠٢ .

(٢) سورة غافرة الآية ٧١ — ٧٤ .

تبكيها أين الأصنام التي عبدتموها من دون الله . فيجيبون أنها غابت عن
العيون . وأنهم ما عبدوا شيئاً . لقد وقع العذاب لضلالهم .

والمشهد من مشاهد يوم القيامة في التهديد المخيف . كما أن التشبيه
وارد في النص حيث يسحبون كما تسحب الأنعام .

والفاصلة «يسحبون» من حيث المعنى مرتبطة بالسلاسل ومتصلة
بقوله «في الحميم» و«يسحبون» أفادت التوكيد بالعذاب في جهنم
المحرقة ، لأنه لو وقفت الآية عند قوله تعالى (ثم في النار .) لبقى المعنى
محتاجاً إلى ثبات واستمرار وحبس وقرار . فجاءت الفاصلة لتوضح هذا
المعنى . كما أن فاصلة (تسحبون) متصلة بقوله «من دون الله» لبيان
الضلال عن الحق والابتعاد عن التوحيد . ومن ثم وجب الوقف على
الفاصلة برغم الاتصال . .

ونلاحظ أيضاً الإيقاع الممتد والمستمر الملحوظ في حرف المد في
استمراره وطوله ثم استقراره وتمكينه في حرف النون .

والفاصلة القرآنية لها مكانها عبر السياق الذي تستقر فيه بلا نفور أو
قلق بل تتلاءم وترتبط به ارتباطاً قوياً بحيث لو طُرحت لاختل المعنى
واضطرب الفهم قال تعالى : ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً
وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً﴾^(١) .

تتناول الآية موقف الأحزاب وقد خرجوا لغزو المدينة ، حيث ردهم
الله على أعقابهم خاسرين ولم يشف صدورهم بما تمنوا تحقيقه بل اكتسبوا
الإثم والعذاب والاندحار . . ولقد كفى الله المؤمنين شر أعدائهم بإرسال

(١) سورة الأحزاب آية ٢٥ .

الريح حتى ولو الادبار منهزمين ، وكان الله قادراً على الانتقام من أعدائه عزيزاً غالباً لا يقهر^(١) .

وجاءت الفاصلة في قوله ﴿قويا عزيزاً﴾ لتحدث هذا المعنى المطلوب خاصة وإن حرف الروى اختلف (الزاي) واتفقت الفاصلة في التنوين . . على الحرف الاخير المتنوع . . وهذا التنوين لون من ألوان الإيقاع المؤثر في النفس ، والحامل قدراً كثيراً من الرنين الصوتي .

ولوانتهت الآية — كما يرى الزركشى — عند قوله عز وجل ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ لتوهم بعض الضعفاء أن ذلك يعنى موافقة الكفار في اعتقادهم أن الريح التي حدثت كانت سبب رجوعهم ، ولم يبلغوا ما أرادوا ، وأن ذلك أمر اتفاقي ، فأخبر الله سبحانه وتعالى في فاصلة الآية عن نفسه بالقوة والعزة ، ليعلم المؤمنين ويزيدهم يقينا وإيمانا على أنه الغالب الممتنع وأن حزبه كذلك — فقال عز وجل ﴿وكان الله قويا عزيزاً﴾ .

كما أن هذه الفاصلة بينت أن تلك الريح التي هبت ليست اتفاقاً بل هي من إرساله عز وجل على أعدائه كعاداته ، وأنه ينوع النصر للمؤمنين ليزيدهم إيمانا بنصرهم^(٢) .

لقد أثبت النص القرآني هذه الحقيقة إذ أسند إلى الله كل ما تم من الأحداث والعواقب ، وجاءت الفاصلة القرآنية لتقرير هذه الحقيقة وتشبيتها في القلوب .

والم تذوق للغة ، وصاحب الحس المرفف يدرك مكانة الفاصلة

(١) انظر صفوة التفاسير ج ٢ .

(٢) مجلة الدارة وانظر البرهان في علوم القرآن للزركشى .

وموقعها وما تتركب من حيث دلالة المعنى ودلالة الإيقاع معاً.

روى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى ﴿فإن زلتم من بعد ماجاء تكلم البيّنات فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾. فقال الأعرابى بحسه اللغوى الصافى: إن الحكيم لا يذكر الغفران بعد الزلل لأنه إغراء عليه. وكأنه يريد أن يوحى ويؤكد على أن العبارة لا تتناسق مع المعنى المراد من الآية. وهذا يعنى أن الفاصلة فى هذا الموضع «رحيم» لا تتلاءم مع المعنى أو مع السياق. لأن تتابع السياق تحددها الالفاظ — «زلل — بينات — اعلموا».. وهذا التتابع يضع سلسلة من الأفعال والبيّنات الداعية إلى أن الحق يعنى الالتزام بأمور الدين. والخروج عن التعاليم الإلهية خروج عن الأمر الإلهى بالاعلام والتبيين.. ومن ثم فإن الحكم الطبيعى للخارج عن النظام ليس الغفران وإنما الشدة وفرض العقاب..

ونعود إلى قصة الأعرابى الذى لفت نظر القارئ إلى أن المعنى لا يستقيم.. لنعلم أن القارئ راجع قراءته فعلم خطأه وصحح الآية الكريمة.. حيث أكملها بقوله.. ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾.

ومعنى ذلك أن الفاصلة تلتحم بالآية التحاماً تاماً، فتذكر بأن الله عزيز لديه القوة والقدرة وأن القوة ستطوهم وتنال منهم إن خالفوا التوجيه، وتوضح أنه حكيم فتوحى بأن ما اختاره الله للبشر هو الخير وأنهم خاسرون إن لم يتبعوا طريق الخير.. كما أن الفاصلة تؤكد معنى التهديد والتحذير..

وفى هذا الصدد يرى «الرماني»(*) أن الفواصل تابعة للمعانى، وأما الأسجاع فالمعانى تابعة لها. «وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة،

(*) على بن عيسى الرماني مؤلف كتاب: النكت فى إعجاز القرآن.

لأنها طريق لإفهام المعانى التى يُحتاج إليها فى أحسن صورة يدل بها عليها» .

والبلاغة من حيث هى من القول لاتفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه من حيث التآلف والرهافة والإيقاع «وهذا هو الحد الفاصل بين فنية البلاغة كما تجلّوها الفواصل القرآنية بدلالاتها المعنوية المرفهة ونسقتها الفريد فى إيقاعها الباهر، وبين ما تقدمه الصفة البديعية من زخرف لفظى يكره الكلمات على أن تجيء فى غير مواضعها البيانية»^(١) .

. . والإيقاع والتلاؤم مع الموضوع ملمح جمالى فى أداء الفاصلة لوظيفتها . إن نظم القرآن ونغمه ينبعث من الحروف والكلمات والأسلوب ، فحروفه متآخية فى كلمات ذات إيقاع موسيقى ونغم تهتز المشاعر منها اهتزازاً وتسكن النفوس مطمئنة راضية ، ويختلج الوجدان متأثراً ومنفعلاً ويطرب القلب حين يدرك المعنى مصحوباً بإيقاع مؤثر يرهف الحس ويرقق الوجدان .

والتلاؤم ملمح جمالى فى القرآن . . يرتبط بالإيقاع ارتباطاً وثيقاً ومن ثم يتحدد الأداء التعبيرى بدورهما عبر السياق القرآنى . . فالإيقاع الهادىء ، له موضعه الملائم له ، والإيقاع الهادر الصاحب له موضعه الملائم له ، والإيقاع الساكن الرقيق له موضعه أيضاً . . ويتبدى التلاؤم فى أن «الآية تتصافر ألفاظها فى نغم هادىء إن كانت الآية فى تبشير، أو داعية إلى التأمل والتفكير إن كانت فى عظة ، وتتلاءم نغماتها قوية إذا كانت فى إنذار أو وصف عذاب»^(٢) .

(١) الاعجاز البيانى للقرآن د . بنت الشاطىء ص ٢٥٨ .

(٢) القرآن المعجزة الكبرى محمد أبوزهرة ص ٢٨٧ .

.. في آيات الضحى نلمح هذا الهدوء وتلك السكينة، البادية في
 نعمات الرحمة الواسعة، والمنبعثة من التلاؤم والتآلف وإيقاع الفواصل:
 قال تعالى: ﴿والضحى * والليل إذا سجى * ما ودّعك ربك
 وما قلى * وللاخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك
 فترضى﴾ (١).

وسورة الضحى خاصة بالنبي ﷺ وفيها تسلية وإيناس وتطمين.
 وتنبثق منها نسائم الرحمة، ويشع من الإيقاع الهادئ الناعم لمسات
 الحنان والرحمة الإلهية. وجاء القسم بالضحى الرائق الصافي كما جاء
 بالليل في رفته وسكونه وصفوه بما يشعر بالتواصل بين الكون والذات
 فتتفى الوحشة ويتأكد الأُنس والمؤانسة. وتؤكد الآيات على رعاية الله
 لمحمد ﷺ وادخاره الخير له وغلبته على أعدائه.

إن الفواصل في الآيات فيها تمهل واستقرار، ويغلب عليها
 التساوى في الوزن والتوازن في الإيقاع. والملاحظ على الفواصل أن كاف
 الخطاب قد حذفت إذ من مراعاة السياق تواصل الخطاب، فقوله تعالى
 ﴿ما ودّعك﴾ خطاب موجه إلى الرسول، ولم نلاحظ الكاف في «ما قلاك»
 مثلاً. . وكذلك في آوى وهدى وأغنى. . في السورة ككل.

وجاء حذف الكاف لدالتين متمازجتين كل التمازج. . وكان
 الحذف متلائماً مع المعنى المراد.

فالدلالة الأولى: دلالة صوتية تحفل بالرنين الهادئ الآخذ
 بالنفس، وهذا ناتج عن رعاية الفواصل في إيقاعها المتواصل، بحيث

(١) سورة الضحى الآيات ١ — ٥.

يتوالى حرف المد بفيضه الشعورى وتعالیه النفسى .

والدلالة الثانية : دلالة معنوية نفسية تتنامى مع السياق الذى «تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللفظ ، هى تحاشى خطابه تعالى رسوله المصطفى فى موقف الايناس بصريح القول : وماقلاك . لما فى القلى من حس الطرد والإبعاد وشدة البغض . أما التوديع فلا شىء فيه من ذلك ، بل لعل الحس اللغوى فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحاب (١)» .

... وكذلك الهدوء الباعث على التأمل فى الكون ، وهو نوع فكرى تأملى ، ينبثق منه إيقاع هادىء ونغم له رنينه الساكن ، وذلك من أجل لفت الذهن ، وإثارة مدارك الفكر ، وتوجيه العقل نحو مشاهد الكون لإدراك العظمة الإلهية وراءه ، وتأكيد الوحدةانية واحتواء الوجدان بفيض من المشاعر الروحية .

قال تعالى : ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت﴾ (٢)

تدعو الآيات الكريمة البشر إلى أن ينظروا إلى بديع خلقه ، وتأخذ الآيات بعقل الانسان ليتأمل هذه النعم الباهرة التى حددتها الآيات . وهى السماء والأرض والجبال والجمال . ومع ما فى هذه الموجودات من صفة مادية مشتركة وهى البروز والضخامة . كما أنها أشياء داخله فى مجال إدراكه البصرى والعقلى . والتوجيه يدعو إلى تأمل الإبل كيف خلقها الله

(١) الإعجاز البيانى للقرآن ص ٢٥٠ .

(٢) سورة الفاشية الآيات ١٧ — ٢٠ .

على هذا النحو الذى يلائم الوظيفة والمكان من حيث التناسب والحركة والتناسق العام . . كما يدعو التوجيه إلى التفكير فى السماء بما فيها من منافع وجمال، تتصل بالنهار الواضح، والليل الساجى والنجوم المتألئة، فضلاً عن تنظيم حركة الحياة وفقاً لحركة السماء . ويدعو التوجيه إلى إنعام النظر والفكر فى الجبال الشاخحات فهى الملاذ، وهى الصاحب، وهى المشهد الموحى بالجلال والعظمة . وكذلك الدعوة إلى تأمل الأرض وقد مهدها الله للحياة والعمل . .

ولاشك أن الإيقاع الناتج عن الفواصل المتحدة فى الحرف الأخير وهو التاء فى ألفاظ (خلقت، رفعت، نصبت، سطحت) ساعد فى إجاشة القلب وتحريك الوجدان، وساهم فى تكوين الحركة الجمالية المشتركة أمام جمال التناسق التصويرى لمفردات الكون . كما أن حركة الفاصلة حركة بناء للمجهول، تستدعى كوامن العقل لسبر أغوارها والوقوف على فاعلها، وفك مجهوليتها، ليصل تلقائياً إلى أن وراء ذلك كله إله واحد لا شريك له . ولقد ساعد الإيقاع الداخلى الناتج عن تكرار اسم الاستفهام «كيف» الباعث على التساؤل عن الكيفية والحالية، وهو استفهام إعجازى لأن العقل البشرى لن يستطيع أن يعلم كيفية الخلق ولكنه يدرك أن الله هو الخالق المتفرد بالوحدانية .

والفواصل متساوية فى الوزن تقريباً، والآيات ذات إيقاع موسيقى متحد تبعاً لذلك . . والإيقاع هادئ متزن ساكن يتلاءم مع الدعوة إلى التأمل والتدبر .

. . . ويتناسق الإيقاع متلائماً مع الموضوع من حيث القوة والجرس الصوتى المدوى «المنبثق من الألفاظ بحروفها، والجمل بتركيبتها،

والخواتم بشدة جرسها وقرع الأسراع بها»^(١)

ويصبح الإيقاع هادراً، صاخباً، قوياً، له زينه الحاد، وتساعد الفاصلة على نقل ذلك كله إلى الوجدان .

قال تعالى : ﴿القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة * يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾^(٢) .

إن المشهد هنا يتسم بالهول العنيف تحدده الكلمة الأولى «القارعة» التي تبدو من خلال السياق كقذيفة تلقى بجرسها الصوتى الرهبة والخوف فى النفوس . وتستمر الفاصلة فى إحداث هذا الرنين الصاخب الموحش عن طريق التكرار والتوازن ، فى هذا الجوتغاير المرئيات وتبديل فيصبح الناس من الخفة والرعب معاً كالفراشات . وتحول الجبال إلى رمال مسحوقة كالصوف المنفوش ولعل حرف الشين بهسيه الصوتى يوحى بهذا الانسحاق والتفتت هذا التلاؤم بين الإيقاع والموضوع فيه تعبير يتراوح بين القصر والطول . . وكذلك تدرج المد الصوتى . .

«فمن تناسق العرض أن تسمى القيامة بالقارعة ، ليتسق الظل الذى يلقيه اللفظ والجرس الذى تشترك فيه حروفه كلها ، مع منظر الناس كالفراش المبثوث والجبال كالعهن المنفوش»^(٣) .

وطول المشهد أدى إلى إطالة التعبير ومن ثم فهو أشد إثارة للحس وترويعاً للنفس .

ونلمح هذا الهول والعنف والترويع فى الآيات والصور التى تناولت

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٨٨ .

(٢) سورة القارعة الآيات ١ — ٥ .

(٣) مشاهد القيامة ص ٧٦ .

يوم القيامة وكانت الفاصلة أهم أدوات التعبير الإيقاعية لايصال هذا المعنى .

قال تعالى في سورة عبس : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يَغْنِيهِ﴾ (١) .

إنه هول يوم القيامة الذى يفر الانسان فيه من أحبابه لشدة الهول والفرع .

فالصاخة لفظ ذورنين صوتى مدوّ، يخرق المسامع ، كمقذوف يخترق الأذن ، فيحدث هولاً نفسياً يفرّغ النفس ويستبد بها ، فتتشغل به عما عداه . . ومن ثم جاءت الفاصلة تحوى حرف المد محتوماً بالهاء التى هى فى الأساس ضمير يلتصق بالذات . . ويلتحم معه فى ودّ حميم ، ويصبح الموقف آية فى العجب والروعة ، حين تتصل الذات . . من هذا الضمير الحميم .

وفى سورة «الحاقة» نحس الرهبة التى تهز الحس هزاً عميقاً ، حيث تتوالى المشاهد فى إيقاع ملح على الحس يتنوع بين الهول والجلال ويبدو ذلك جلياً فى تكرار «الحاقة» بلفظها وجرسها ودلالاتها قال تعالى : ﴿الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة﴾ (٢) .

وإيقاع اللفظ بذاته أشبه برفع الثقل ثم استقراره فى قرار مكين . فالرفع فى مدّة الحاء بالألف والجدّ فى تشديد القاف بعدها واستقراره فى قافية الفاصلة المكررة وذلك بالانتهاء بالتاء المربوطة التى تنطق هاءً

(١) سورة عبس الآيات ٣٣ — ٣٧ .

(٢) سورة الحاقة الآيات ١ — ٣ .

للسَّكْتِ . ثم نلاحظ التنوع في أداء المفردة التي هى فاصلة . حيث جاءت مقذوفة سريعة تدهش وتصيب بالهول وتستدعى الدهشة والخوف . ثم يتتابع الأداء بإضافات أسلوبية تدور حول الاستفهام للتعظيم مرة وللتجهيل وبعد المعرفة مرة أخرى . ونلاحظ هذا الإيقاع في متواليات مشاهد السورة . كما نرى في المشهد الذى يتناول مصارع الضالين المكذبين .

قال تعالى : ﴿ كَذَبْتَ ثُمُودَ وَعَادٌ بِالقَارَعَةِ * فَأَمَّا ثُمُودُ فَأَهْلَكُوا بالطاغية * وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ ﴾ (١) .

فالفاصلة التى تحمل الجرس المدوى فى الياء والهاء الساكنة بعدها سواء كانت تاء مربوطة ، أو هاء سكت لتتسيق الإيقاع فى مشاهد التدمير والهول والجزاء . فألفاظ الفاصلة تحمل دلالات المعنى حملاً واضحاً . «القارعة» تشى بالصوت المدوى الذى يصك المسامع ويقرع الكون بالدمار . تعبير مروع لبيان هول القيامة أحدثه جرس اللفظ بما يوحى به حروفه مثل القاف والراء والعين . . ويديمه ويقويه حرف المد حيث يصيب الكون كله . ولفظة «الطاغية» تفيض بالهول الذى حاق بالأمم السابقة ، وإيقاع اللفظ يتفق مع إيقاع الفاصلة ، وهذا الإيقاع الذى هو تنوع لصورة الهول مع القيامة . . وكلمة «عاتية» وردت صفة للريح الصرصر بما تحمله من عذاب ودمار . والتعبير يصور العاصفة المدمرة . ثم لفظة «خاوية» التى تلخص نتائج الهول والعذاب وقد وردت فى أداء

(١) سورة الحاقة الآيات ٤ — ٧ .

تشبيهى يؤكد على الموت والتآكل والهمود بعد العاصفة المزمجرة، ويأتى الإيقاع متفقاً مع الفاصلة لينهى به حركة هول مفزعة ويصل بها إلى نتيجتها المحتومة. والمشاهد كلها حية يصاحبها هذا الإيقاع الذى حركته الفواصل وساعدت عليه فى إحداث الجرس الخاص فى تنوعه وتلونه وفق نسق المشهد وإيقاعه.

تتغير الفاصلة ليتغير الإيقاع إلى إحداث رنة رهيبية لحظة إصدار الحكم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿خذوه فغلوه﴾ * ثم الجحيم صلّوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ﴿١﴾.

ولعلنا نلاحظ إيقاع الفواصل المستمر «غلوه، صلوه، اسلكوه».. هذا المدّ الطويل الذى يعكس زمن العذاب وطوله وما يترتب عليه من إحداث الرهبة والتخويف.

ونرجع إلى مشهد الذين نجوا من النار ودخلوا إلى الجنة وإيقاع الفواصل فيها ومدى ملاءمتها للمشهد والدلالة.

قال تعالى: ﴿فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابه﴾ * إنى ظننت أنى ملاق حسابه * فهو فى عيشة راضية * فى جنة عالية * قطوفها دانية ﴿٢﴾.

إن الفرحة تترقق من المشهد، تملأ الجوانح وتفيض على القلوب والألسنة. ولننظر إلى هاء السكت فى الفواصل التى أحدثت الإيقاع

(١) سورة الحاقة الآيات ٣٠ — ٣٢.

(٢) سورة الحاقة الآيات ١٩ — ٢٣.

المنعم الذى يساعد على إبراز نبرة الفرح ورنته «كتاييه، حساييه» فالفاصلة هنا هى الياء المصحوبة بهاء السكت لتنسيق الإيقاع وإبراز صورة المشهد فى هيئة حركية مؤثرة. ثم تتجاوز الفاصلة مرة أخرى مع الياء المصحوبة بالتاء الساكنة التى فيها تشديد وإقرار وتمكين. ولقد كانت الفاصلة الأولى واشية بهزة الفرح والمرح والمسرة. والفاصلة الثانية لتأكيد النعيم وصوره.

ولعلنا نلاحظ أن الإيقاع عكس الفرحة التى غمرت قلب المؤمن حين علم أن الله راحمه بعدما ظن أنه لا يخلف وعده.

كما نلاحظ أثر الفاصلة فى كشف حالة الذين عذبوا بالنار قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِى لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ * يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِ مَالِيهِ﴾ (١).

أبرزت الفاصلة — الياء المصحوبة بها السكت — قربها من نفس المعذنين ومن كشفها لما حل بهم من حسرة وألم وعذاب ويأس، ومن ثم طال المشهد وتنوعت إيقاعاته. وتكررت الألفاظ الواشية بهذا الندم (ياليتنى) كتأكيد استحالة حصول المتمنى الذى يأخذ النفوس فى تلك اللحظة، والتنغيم فى الإيقاع يشمل الموقف كله.

(والرنة الحزينة الحسيرة المديدة فى طرف الفاصلة الساكنة وفى ياء العلة قبلها بعد المد بالألف فى تحزن وتحسر. . هى جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى إيحاءً عميقاً. . بليغاً) (٢).

مع ما يفيد جرس الكلمات وإيقاع العبارات فى إطالة الموقف

(١) سورة الحاقة ٢٥ — ٢٨.

(٢) الظلال ج ٦ ص ٣٦٨٢.

للعبرة .

.. وإنه لمن الجمال الفنى ومن التأثير الوجدانى ومن الغرض الدينى ، ما يجعل لطول الموقف غايته المقصودة .

وتغيرت الفاصلة عند تقرير أسباب العذاب الشديد الذى حاق بالكافرين يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحِضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (١) .

والآيات تحمل سبب هذا العذاب وتصدر حكمها ، فالكافر خلا قلبه من الايمان ، كما خلا من الرحمة بالمساكين فاستحق العذاب ، وكان طعامه قيحا وصديداً هما ما ينز من أجساد أهل جهنم .

ولقد عكست الفاصلة هذا العذاب سواء عذاباً حسياً أو معنوياً ليتم له فى النهاية جحيم الجسم والروح معاً . وفى هذه المشاهد يبلغ التأثير الوجدانى غايته حيث تتفتح منافذ النفس للايمان . .

لقد تغيرت القافية ما بين الميم والنون فأحدثت رنة رزينة حاسمة تتلاءم مع المعنى الدينى فى السياق .

«إن فواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ، لأنها طريق الى إظهار المعانى التى يحتاج إليها فى أحسن صورة يدل بها عليها» (٢) .

●● إن الفواصل إحدى أهم الأدوات التعبيرية المحدثه للنغم والداعية الى التوافق والتلاؤم والايقاع ، كما أن التلاؤم ناتج عن النغم

١) سورة الحاقة الآيات ٢٣ — ٣٧ .

٢) — اعجاز القرآن — الباقلانى . تحقيق السيد صقر ص ٢٧١ .

وجرس القول وموسيقاه، فالحرف متلائم مع الحرف، واللفظ مع اللفظ، والجملة مع الجملة والآية مع الآية.

... والإيقاع النغمي يجمع بين الرنين والجرس الصوتي للفظ وذلك حين تكون الفاصلة متحدة الحروف متماثلة الوزن، متفقة في الحرف الأخير ومن ذلك قوله تعالى: ﴿والطور* وكتاب مسطور* في رق منشور* والبيت المعمور* والسقف المرفوع والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع* ماله من دافع﴾^(١).

إن الإيقاعات الموسيقية للمقاطع والفواصل على السواء تحدث تنغيماً يمتد ليشمل السورة ككل. ويصاحب الإيقاع القسم بمخلوقات عظيمة، لإحداث التهيئة الحسية لتلقى الأمر وهو حتمية العذاب. وإيقاع فاصلتي واقع — دافع، يوحى بالجسم والقطع. ويلقى في الحس بمداهمة الهول حيث لا عاصم ولا حام ومن ثم يُحترق الوجدان فيضعف الإنسان ويخور خوفاً من العذاب الشديد. «وفي إضافة العذاب للرب لطيفة إذ هو المالك والناظر في مصلحة العبد فإضافته إلى الرب وإضافته إلى كاف الخطاب أمان له ﷺ. . . وأن العذاب واقع بمن كذبه، ولفظ واقع أشد من كائن كأنه مهياً في مكان مرتفع فيقع على مَنْ حل به» ويروى عن جبر بن مطعم أنه قال: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب (والطور وكتاب مسطور. . . إن عذاب ربك لواقع. . . فكأنها صدع قلبي فأسلمت خوفاً من نزول العذاب)^(٢) وحروف الفواصل تتحد في —

(١) سورة الطور الآيات ١ — ٨.

(٢) انظر صفوة التفاسير ج ٣.

أكثر من مقطع ثم تتغير إلى اتجاه المقاطع في حرف آخر غير السابق مثلما رأينا في الوزن وحركة الصوت من فتح ووقف، وسكون وإمالة ومدّ . . مسطور، منشور، وكذلك واقع، دافع . .

ولقد جعل ذلك كله النص ييوح بقدر كبير من الموسيقى المؤثرة في النفوس حتى لتصبح خلجات النفس متناسقة مع حركات الإيقاع تهتز اهتزازها، وتميل مع إمالتها .

●● وإذا كان التماثل في الفواصل ظاهرة عامة في النص القرآني فإن ثمة آيات تتقارب فيها مقاطع الفواصل تقارباً يحدث الإيقاع والرنين الصوتي وذلك دون أن تتحد الفواصل في حرف واحد . . وإن لم تحل من الوزن الجامع للفواصل . .

قال تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * إِذَا مَثْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾^(١).

الآيات الكريمة من أول سورة ق . . وهي سورة غنية بإيقاعها وبنائها التعبيري الذي يأخذ بجوانب النفس ودخائلها . وللفواصل فيها جرس صوتي أخذ يتلاحق موجة إثر موجة، ونغمة إثر نغمة، متراوفاً بين حروف الدال، والباء — وهما الأكثر وروداً — والجيم ثم الراء .

وفي الآيات قسم بالحرف قاف وبالقرآن المجيد، المؤلف من هذه الحروف . . ولعلنا نلاحظ تكرار الإيقاع الداخلي الناتج عن تكرار حرف

(١) سورة ق الآيات ١ — ٥ .

القاف . وتذكر الآيات عجب الكافرين واستنكارهم للبعث ومع أن قضية البعث قاعدة أساسية في العقيدة مشاهدة رأوا لها مثالا من الجذب والنماء إلا أنهم نظروا إليها في سذاجة وحمل الاستفهام الاستنكارى هذا المعنى . . إذ كيف يكون بعث بعد الموت والبلبى؟

إن أجسادهم تتآكل «والله يعلم ما تأكله الأرض من أجسادهم وهو مسجل في كتاب محفوظ فهم لا يذهبون ضياعاً إذا ماتوا وكانوا تراباً»^(١) . . انهم قوم مادت بهم الأرض ولم يستقروا على شىء . ذلك أن كل ما عدا الحق الثابت مضطرب مائج مزعزع . ومن ثم تزل القدم ويفقد الإنسان الطمأنينة والقرار.

. . وفي الآيات ليس ثمة اتحاد في الفواصل ، بل تنوع وتغير ، ومع هذا التغير تحتفظ الفاصلة بإيقاعها النغمى ، إنه الإيقاع الناتج عن تقارب مخارج الحروف — الدال ، الباء ، الظاء . . مع وجود حرف المدّ قبل الحلاّ الأخير وهو حرف الياء مجيد ، بعيد ، حفيظ ، مريح . . ومن ثم يصبح نسق القول واحداً ، والإيقاع متوازناً ، بالرغم من أن الفاصلة لم تتفق اتفاقاً تاماً في الحروف . . ويجمع ذلك كله «اتحاد النغم والموسيقى في كل المقاطع فهى كلها مؤتلفة في حروفها وألفاظها وجملها ومقاطعها»^(٢) .

وقد تخلو الآيات من فواصل متحدة ومع ذلك يبقى الإيقاع الموسيقى مصاحباً للآيات وذلك ناتج عن التلاؤم بين الحروف وبين الجمل من خلال السياق الداخلى للنص .

(١) الظلال ج ٦ ص ٣٣٥٨ .

(٢) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٩٤ .

●● وإنما نلاحظ هذا الحرص الشديد في النص القرآني على إيقاع الفواصل مما يعنى أهمية الفاصلة للنص وللقارئ معاً . فهي تحدث التأثير الوجداني المطلوب ، بحيث يصل المعنى إلى المتلقى في أداء منغم مؤثر . ومن ثم نلاحظ على بناء بعض الفواصل حذف بعض الحروف للإبقاء على حالة الإيقاع التي يحدثها تشابه الحروف وتماثلها فضلاً عن الدلالة المعنوية .

قال تعالى : ﴿ والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر ﴾ (١) . .

والآيات الكريمة قسم بضوء النهار وبالليالي العشر من ذى الحجة وبالزوج والفرد . . وكأن الله أقسم بكل شيء لأن الأشياء إما أن تكون زوجية أو فردية كما أقسم بالليل . . والجواب محذوف يفهم من خلال السياق . وهو العذاب الواقع على الكفار .

ويسرى عبر هذه الآيات هذا الجمال التعبيري الرائق الذي يجمع الكائنات والخلائق في نسق جميل يتمثل في تنفس الصباح لحظة الميلاد بما يوحي من حركة ومدّ وفرح ، وحركة الليالي المباركة التي تتفرد حركتها وسط الليالي الكثيرة المتنوعة . . ولعل حركة الأشياء المرتبطة بالخالق توحى بأن المراد بالشفع والوتر ما يتصل بالصلاة . . وهذا رأى قاله سيد قطب رحمه الله انطلاقاً من تحليله للنص وإدراكه لمعنى الحركة الكلية المنبثقة من المشاهد : يقول «الشفع والوتر يطلقان روح الصلاة والعبادة في ذلك الجو المأنوس الحبيب . . جوّ الفجر والليالي العشر . . وهذا المعنى هو

(١) سورة الفجر الآيات ١ — ٤ .

أنسب المعانى في هذا الجوحيث تلتقى روح العبادة الخاشعة بروح الوجود الساجية»^(١). . . كما أن الليل مخلوق حيّ يتحرك حركته . . . وتنشق من الآيات النغم الجميل عبر هذا التناسق الفذّ في إيقاع الفواصل : الفجر، عشر، وتر، يَسْر.

ولعلنا نلاحظ حرص الآيات على استمرارية الإيقاع ومن ثم لاحظنا حذف الياء في «يَسْر» طلباً للموافقة في الفواصل . وذلك لبيان أهمية الفاصلة في النص ولدى المتلقى معاً، من حيث الإبقاء على مناطق الإيقاع والتأثر النفس . . . ونلاحظ هذا الحرص على تواصل الإيقاع واستمراريته كسمة لإيقاع الفواصل . . . في قوله تعالى : ﴿والنجم إذا هوى * ما ضلّ صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علّمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتولى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتمارونه على ما يرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى * أفرايتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذن قسمة ضيزى﴾^(٢).

أقسم سبحانه بالنجم الساقط الراصد على صدق الدعوة المحمدية الداعية إلى الهداية، والوحدانية، ورسول الله ﷺ لا يقول باطلاً ولا ينطق عن الهوى وإنما هو الوحي من الله يتلوه قرآنا عربيا نزل به جبريل عليه

(١) الظلال جـ ٦ ص ٣٩٠٣.

(٢) سورة النجم الآيات ١ — ٢٢.

السلام مبلغا . . . إلى الرسول ﷺ أوامر الله . وتستنكر الآيات أن يجادل المشركون رسول الله حول الإسراء والمعراج ، مؤكدة أنه ﷺ قد رأى جبريل مرة أخرى عند سدة المتهى فى السماء السابعة قرب العرش . وسميت بهذا الاسم لأنه [لا يعلم أحد ما وراءها إلا الله] . ولم يزعج بصر الرسول فى ذلك المقام العظيم ، وما جاوز الحد . ولقد رأى الرسول آيات عجيبة ، كروية جبريل — مثلا — فى هيئة الملائكية وله ستمائة جناح على نحو ما ورد فى حديث الإسراء والمعراج . ثم تتساءل الآيات فى تبكيت عما إذا كان الكفار قد رأوا آلهتهم ؟ وهل لهم من القوة والعظمة ما تعطى وتمنع ؟ وتوبخهم حين نسبوا إلى الله البنات .

إننا هنا فى مجال علوى يشع بالروحانية والنورانية . والحدث — المعراج — عظيم حيث تحددت أبعاده فى السماء ، وحيث كُرم الرسول فى ضيافة الخالق عز وجل . وجاءت الآيات تبعا لهذا العلو . قطعة من الموسيقى ، ينبثق منها هذا النور المنعم ، المتموج ، المتلألئ ، الذى يضج بالبهاء والصفاء والعظمة . إنه النغم السارى فى البناء التعبيرى اللفظى ، وفى تراكيب الجمل والعبارات كما يسرى فى إيقاع فواصلها الموزونة المقفاة .

(وذلك الإيقاع ذو لون موسيقى خاص ، لون يلحظ فيه التموج والانسياب . . وهو يتناسق مع الصور والظلال الطليقة . . التى تشع من المجال العلوى الذى يقع فيه الحدث النورانى والمشهد الربانى ، متناسقة مع حركات جبريل وهو يتراءى للرسول^(١) . إنه جوروحى أثر فى الإيقاع التعبيرى فامتزج به وتناسق معه .

(١) الظلال ج ٦ انظر ص ٣٤٠٤ / ٣٤٠٥ .

ولقد بدا النص القرآنى حريصا على الإيقاع ، ضائبا به أن يختل به أو يفقد تأثيره . . حتى يظل لإيقاع انسيابه الرقراق ، وتأثيره المشرق فى الوجدان .

والحرص على تسلسل الإيقاع ملحوظ فى بعض الفواصل . ففى قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ . نلاحظ أننا لو حذفنا كلمة «الأخرى» لاختلت الفاصلة وتصدع الإيقاع . ولو حذفنا «إذن» من قوله تعالى ﴿تِلْكَ إِذْ نَحْنُ بِمُصَوِّرِي﴾ . لاختل الإيقاع ، حيث يستقيم الإيقاع بكلمة «إذن» كما استقام بكلمة الأخرى .

لايعنى هذا أن كلمة «الأخرى» وكلمة «إذن» زائدتان لمجرد القافية والوزن . . فهما ضرورتان فى السياق . . وتلك ميزة فنية أخرى أن تأتى اللفظة لالتؤدى معنى السياق وتؤدى تناسباً فى الإيقاع دون أن يطغى هذا على ذاك ، أو يخضع النظم للضرورات^(١) .

والقرآن الكريم انفرد بهذا الوجه المعجز فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو بدل بغيره ، أو أقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللا بيّنا أو ضعفا ظاهراً فى نسق الوزن وجرس النغمة وفى حس السمع وذوق اللسان وفى انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف . . وقد يتأتى ذلك بحذف بعض الحروف لملاءمة القافية ونجد ذلك فى قوله تعالى : (حكاية عن إبراهيم)

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّإِبْرَاهِيمَ الْعَالَمِينَ * الَّذِى خَلَقْنِىْهُ فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِى هُوَ بِطَعْمَنِّىْ وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِينِ * وَالَّذِى يُمِيتُنِىْ ثُمَّ

(١) التصوير الفنى ص ١٠٤ .

يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴿١﴾ .

ولعلنا نلاحظ أن ياء المتكلم قد خطفت خطفاً في «يهدين، يسقين، يشفين، ويحيين» وذلك محافظة على حرف القافية (النون) . . . وذلك لتحقيق قصد الانسجام في إيقاع الفواصل . مع مراعاة أن الفاصلة القرآنية يؤدي لفظها في السياق الدلالة المعنوية التي لا يؤديها لفظ آخر . .

ولعلنا نسترجع — تاريخياً — أن موسيقى القرآن الكريم وإيقاعه المنعم قد استرعى انتباه العرب وأثر في سماعهم ونفوسهم وأجاش داخلهم ورأوا فيه الحلاوة والطلاوة ونعم اللفظ وجرسه مع جمال المعنى وإحكامه . فللمقرآن نظامه الصوتي الفريد (ونريد بنظام القرآن الصوتي، اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ومدّاته وغمّاته، واتصالاته وسكّناته اتساقاً عجيباً، وائتلافاً رائعاً يسترعى الأسماع ويستهوئ النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أى كلام آخر من منظوم ومشور . . وأن من شأن الجمال اللغوي والنظام الصوتي أن يسترعى الأسماع ويثير الانتباه ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان إلى هذا القرآن . .) (٢)

(١) سورة الشعراء الآيات ٧٧ — ٨٢ .

(٢) التبيان في علوم القرآن . محمد الصابوني ص ١٠٩ وانظر مناهل العرفان محمد عبد العظيم الزرقاني ج ٢ .

الفصل الرابع :

● **الأداء التصويري**

● **ومشاهد الجنة**



يغلب التصوير الحسى على مشاهد الجنة فى القرآن . وهذا التصوير يجعل المشهد المحسوس حياً متحركاً وبارزاً مشخفاً . وتتضافر مكونات المشهد فى وحدة جمالية متنوعة بحيث تؤدى الدور المرسوم . وتوحى بالمعنى المستكن خلف المشهد فتخفق القلوب ، وتشوق الأرواح ، وتسرى فى النفس الطمأنينة ويشيع سكون القلب . . وذلك كلما خطر على القلوب خاطر الجنة ومشاهدها البالغة الروعة .

ومشاهد الجنة بما تتضمنه من متع وجمال ولذة قد أعدت للذين آمنوا وعملوا الصالحات . ومن منطق التقابل لإدراك جمال النعمة ، وعظمة الرضى الإلهى ، ورحمته بالمؤمنين . . تأتى مشاهد النار حافلة بالعذاب ناضحة بالالم ، دامغة هؤلاء الذين كفروا ببرهم وأنكروا البعث والنشور . ومشاهد الجنة غنية بمفردات التكوين الجمالى ، حافلة بصور شتى تنضح بالمتعة فى أنساق مادية ولونية وحركية فتتجسد عالماً كاملاً التكوين ، حافلاً بالروعة والمتعة ، والراحة ، والرضى . . «وتترأى عشرات من الأوضاع والأشكال والسمات ، وتؤلف بذلك ملاحم فنية رائعة ، تملأها النفس ، ويتابعها الخيال ، ويستغرق فيها الحس ، وتترأى فيها الظلال ، وتضيف إلى الثروة الأدبية الفنية صفحات مفردة ، لا شبيه لها ولا مثال»^(١) .

(١) مشاهد القيامة فى القرآن سيد قطب ص ٤٣ .

إنها مشاهد حية تقاس فيها الأبعاد بالمشاعر والوجدان، وتصور المشاهد متفاعلة في النفوس، وقد خلعت عليها الطبيعة الحياة بأبعادها المتنوعة.

ويصبح النعيم في الجنة، وقد تمتعت به الأجسام وسعدت به الجوارح — دقيقاً في رسمه، عميقاً في تصويره، يحمل الظلال النفسية الرقيقة التي تتبدى على الملامح سكونية، وجمالاً وجوراً واطمئناناً.

. . . ولعل أهم ملامح التصوير في مشاهد الجنة، هو تجسيم ذلك النعيم تجسيميا مادياً ملموساً. . كأنك تلمسه بأصابعك وتحسه بنفسك. ويتحول المشهد المادى إلى قطعة مصورة من الجمال، حيث يتجلى التناسق في مفردات المشهد من حيث التماثل أو التشابه أو التقابل أو التداعى كما يتجلى في جرس الألفاظ ليعطى الإيقاع المناسب لجو المشهد، كما يتجلى في اتساق المشهد كله بألفاظه ومعانيه وجرسه وإيقاعه مع السياق العام الذى يعرض فيه. ذلك أن مشاهد الجنة «مسوقة لأداء الغرض الدينى، ذلك الغرض الأول للقرآن. ولكنها تتصل بالوجدان الدينى عن طريق الوجدان الفنى»^(١).

. . . ولنقف أمام مشهد الجنة الذى ورد في سورة الواقعة، لتندبر هذا التناسق الجميل في تكوينات المشهد الجمالية.

قال تعالى: ﴿على سُرر مَوْضونة * مُتَكئين عليها مُتقابلين * يَطُوفُ عليها ولدانٌ مُخَلدون * بأَكوابٍ وأَبَاريقٍ وكأْسٍ من مَعِين * لا يُصَدَّعُونَ عنها ولا يَنزِفُونَ * وفاكهة مما يَتَخَيرون * ولحم طير مما يَشْتَهُون * وَحُورٌ

(١) مشاهد القيامة ص ٤٧.

عينُ كأمثال اللؤلؤ المكنون * جزاءً بما كانوا يعملون ﴿١﴾ .

وهذا مشهد حسى من مشاهد النعيم التى يتمتع بها أهل الجنة فهم يجلسون على أسرة مذهبة ، ويضطجعون فى استرخاء لذى شأن الانسان المترف المنعم ، يتواجهون فى سرور وحبور لا ينظر أحدهم فى ظهور أحد انطلاقا من حسن العشرة وتهذيب الأخلاق .

ويطوف عليهم ، يخدمونهم ويلبون حاجاتهم ، أطفال صغار يتسمون بالنضارة والجمال ، ومعهم الأقداح والأباريق والكؤوس وقد امتلأت بخمر لذيدة تتدفق من العيون ، فيها لذة لمن يشرب ، ولا تتصدع من شربها الرؤوس ، ولا تغيب الحواس منها أو تتخدر العقول . . وهم فى متعتهم تنضاف متع أخرى تشعر باللذة حين يمدون أيديهم فيتناولون ما يشتهون من فاكهة طازجة ناضجة ، ولحم طير على أشهى ما يريدونه .

«قال ابن عباس : يخطر على قلب أحدهم لحم الطير ، فيطير حتى يقع بين يديه على ما اشتهى مقلبا أو مشويا» (٢) .

ويتألق النعيم الحسى حين يأتى الحديث عن نعيم النساء الذى وعد به أهل الجنة . فهن نساء واسعات العيون ، بالغات حداً فائقاً من الجمال والبهاء والصفاء وكأنهن فى نقاء اللؤلؤ وصفائه . إنه لؤلؤ مكنون لا يتغير حسنه ولا يتبدل . .

سألت أم سلمة رسول الله ﷺ عن هذا التشبيه فقال : «صفاءهن كصفاء الدر فى الاصداف الذى لم تمسه الأيدي» .

وهذا التشبيه الحسى يجمع بين طرفين حسين يشع الجمال منهما . .

(١) سورة الواقعة الآيات ١٥ — ٢٤ .

(٢) صفوة التفاسير جـ ٣ ص ٣٠٧ .

* ولقد وردت هذه الصورة متكررة في آيات أخرى . . مما يوحى
بحرص القرآن على تكريس الصورة الحسية . . والتي تحمل معنى خلقيا
عفيفاً في جوانب الصور الأخرى . .

قال تعالى : ﴿ وَعندهم قاصرات الطرف عين * كأنهن بيض مكنون ﴾ (١) .

إن نساء الجنة يتمتعن بالعفة والحياء ، فهن يقصرن أبصارهن على
أزواجهن ، فلا يسرحن النظر هنا ، أو هناك ، لما يتمتعن به من حياء
يصون عليهن الكرامة ، وهو حياء يحتوى النفس والسلوك معاً . . وهو ما
يشعر بالحب للزوج والوفاء له . وهن مع هذا الحياء جميلات العيون
يتصفن بالحسن والبهاء ، فغفتهن عن ثقة بالنفس وعن تكامل في الجمال
وليس عن انتقاص في الشكل والهيئة . . كما أنهن كاللؤلؤ المكنون في
أصدافه . « لا تبتذله الأيدي ولا العيون . والعرب تشبه المرأة بالبيضة
لصفائها وبياضها » .

وقال تعالى : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ (٢) .

فالنساء في جمالهن وصفاء ألوانهن والوجوه المشربة بالحمرة كأنهن
الياقوت في صفاء لونه ، والمرجان في حمرة الدافئة .

« قال قتادة : كأنهن في صفاء الياقوت وحمرة المرجان ، لو أدخلت في
الياقوت سلكاً ثم نظرت إليه لرأيت من ورائه » .

ولعل الصورة التشبيهية التي وضحت المعنى المراد من الجمال

(١) سورة الصافات الآيات ٤٨ — ٤٩ .

(٢) سورة الرحمن آية ٥٨ .

والبهاء، قد عقدت صورة حسية كاملة الأبعاد حتى أصبح الطرفان في الصورة واضحين في مجال التشبيه من حيث البهاء والصفاء.

«إن تشبيهات القرآن الكريم أياً كان وجهها صور بيانية، تتضح منها الحقائق الظاهرة، والمعاني العاطفة، كأنها أمور محسوسة مرئية، فإذا كان التشبيه بأمر محسوس كانت الصورة البيانية كأنها مرئية واضحة»^(١).

فكأننا نرى رأى العين النساء في الجنة، جمالاً وبهاءً وصفاءً كأنهن قطع من اللؤلؤ والياقوت. تشع وجوههن بالبهاء، ويشى لونهن باحمرار يتغلغل في بياض ناصع كالدر المكنون. . وتبدو المرأة كأنها قُدت من اللؤلؤ الخالص. إنه تصوير يريك الجمال والبهاء مجسدين في صورة متحركة تشبع القلب وتريح الحس وتثرى الوجدان. .

● وتصور آيات أخرى في «الواقعة» نساء الجنة تصويراً يعطى تكاملاً لأبعاد الصورة المرسومة للمرأة في الجنة. . فتبدو الصورة متناسقة مع مشهد النعيم الذي يتمتع به الرجل.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * غُرُباً أَتْرَاباً﴾^(٢).

الصورة فيها تكوين جديد يعطى أبعاداً عميقة تشرح البهاء والجمال في الآيات السابقة. .

فلقد خلق الله نساء الجنة خلقاً جديداً، فهن دائماً عذارى، وهن دائماً متحبات للأزواج، عاشقات لهم.

(١) القرآن — المعجزة الكبرى محمد أبو زهرة ص ٢٥٥.

(٢) سورة الواقعة الآيات ٣٥ — ٣٧.

قال مجاهد: هن العاشقات لأزواجهن، المتحبيات اللواتي يشتهن أزواجهن». كما أنهن مستويات ومتماثلات في السن. فهن «على ميلاد واحد في الاستواء كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً. فلما سمعت عائشة رضى الله عنها ذلك من رسول الله ﷺ قالت: وا وجعاه. فقال رسول الله ﷺ: ليس هناك وجع»^(١).

.. إن مفردات الصورة تعطينا أبعاد المشهد في تكوين يحتوى عناصر المتعة والجمال. . . وقد توخت الصورة البعد الحسى انطلاقاً من تقريب البعيد، وتجسيد المتخيل، وتجسيم المعنوى، وتأكيداً على المعنى الدينى العميق الذى يترقرق تحت الصورة. . . وهو رضى الله عن عباده المؤمنين المتقين، وإغراءً بالتقوى لنيل هذا النعيم الممتع اللذيذ.

● ويتكرر المشهد فى صور مماثلة تقريباً. . . ويتأكد الجمال من خلال السياق وعبر المفردات المحملة بظلال من المعانى المصاحبة فى جدّة وتجدد.

● قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينَ * وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ يَتَنَزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَآلِغٍ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤُا مَكْنُونٌ * وَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا

(١) الكشف ج ٤ ص ٥٩.

قبل في أهلنا مشفقين» (١).

فالمثقون يتنعمون بالجنة نعيماً مقيماً، ويتلذذون بما أعطاهم الله من أصناف المأكول والمشرب. ويؤمن الله عليهم أن نجاهم من النار. «يقول ابن كثير: وتلك نعمة مستقلة بذاتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة» (٢).

وهم يجلسون في جنتهم على سُرر مذهبية مكلفة بالياقوت مرصعة بالدر مع زوجات بيضاوات حسان، ومعهم الأبناء حتى تقرأ العيون وتهدأ النفوس.

وراحة النفس معنى صاحب أهل الجنة من المتقين، بما يضيف على النفس السكينة وبما يجعل طبيعة المشهد ساكنة في جلال، مطمئنة في رضى، تشع عنصراً جمالياً نفسياً يضاف إلى عناصر الحس الممتعة الأخرى. . فالنفس لا تتوزع ولا تنشط ولا يشغلها شاغل. .

قال ابن عباس، إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه إلى درجته في الجنة. . وإن لم يبلغها بعمله، لتقر بهم عينه).

«ويقول الزمخشري: فيجمع الله لأهل الجنة أنواع السرور، بسعادتهم في أنفسهم، ومزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أهلهم ونسلهم بهم» (٣).

وهم يتعاطون في الجنة كؤوس الخمر يتجاذبون فيها في تلذذ وأنس وسرور، دون أن يقع بينهم ما ييسىء، ولا يلحقهم أذى مما يحدث في خمر الدنيا.

(١) سورة الطور الآيات ١٧ — ٢٦.

(٢) مختصر ابن كثير ج ٣ ص ٢٩٠.

(٣) الكشف ج ٤ ص ٣٤.

«قال قتادة: نزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها صدام الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام الفارغ الذى لا فائدة فيه، المتضمن للهذيان والفحش ووصفها بحسن منظرها، وطيب طعمها».

وينجدهم غلمان مخصصون لهم كأنهم اللؤلؤ جمالاً وصفاءً. . وهم فى نهاية المشهد يتسامرون تلذذاً واعتراضاً بالنعمة، متسائلين عن أحوال الدنيا وأعمالهم فيها حيث كانوا خائفين من الله مشفقين من عذابه وهاهم قد منّ الله عليهم بالجنة ووقاهم عذاب جهنم.

ذلك أنهم «عاشوا على حذر من هذا اليوم، عاشوا فى خشية من لقاء ربهم، عاشوا مشفقين من حسابه. عاشوا كذلك وهم فى أهلهم، حيث الأمان الخادع، ولكنهم لم ينخدعوا، وحيث المشغلة الملهية، ولكنهم لم ينشغلوا»^(١).

● ولعلنا نلاحظ فى المشهد تنوعاً جديداً فى التعبير يصور حالة المؤمنين تصويراً دقيقاً، ومن ثم وشت المفردات بذلك.

فالكأس يتنازعها أهل الجنة، وليس فى الجنة تنازع وإنما هى المنادمة على الشراب زيادة فى الصفاء وتأكيذاً للمحبة، فالتبادل تلذذ بالكأس المشتركة وهى تدور عليهم فرداً فرداً مع ما يصاحب الفعل من حركة ونظرة وحديث. وأصبحت الكأس قاسماً للذة مشتركة تبعث على السرور والرضى. وهى ليست واحدة إنما متعددة تحوى شراباً من نوع واحد.

(١) الظلال ج ٦ ص ٣٣٩٧.

(والكأس «لا لغوفيهها ولا تأثيم» وهو تعبير لطيف . فهذه الكأس لا لغوفيهها . كأنها اللغو الذى يهزبه الشاربون من خمر الدنيا كامن فى ذات الكأس التى بها يشربون . أما هذه الكأس الفردوسية فمبرأة من اللغو، مبرأة من الإثم أيضاً)^(١) .

.. كما أن مشهد السمر اللذيذ الممتع يعكس حالة الاسترخاء المحبب وحولهم كل ما يلذ ويشتهى .

«وبهذا المشهد تتم صورة المتاع ، فهو متاع الحس ، ومتاع الخاطر، ومتاع الضمير» .

● والمشهد استعراض لمفردات الصورة التى تناولت النعيم ومساحته وتنوع لذائذه .

ولعلنا نلاحظ مساحة المجال — المكان — وقد انفسح وتنوع . وغلب على المكان اللون ، وأصبحت المساحة تشكل صورة مرسومة لتكوينات لونية حسية تشغل حيزاً فى المساحة ، وكل تشكيل يتنامى مع الآخر فيعطى للمجال التشكيل التصويرى العام .

وأرضية اللوحة الكلية مترعة بجمال حسى متعدد الدرجات . فثمة بساط من الخضرة ، وقد رصت على جوانبه أرائك تتحاور لونياً مع لون المساحة . . فيبرز الذهب والياقوت فى تألق لونه وبهاء مشع . وفى وسط المساحة تتبدى الفاكهة فى طراحتها ونضجها أنواعاً من اللون فى درجاته المتنوعة ، واتخذت نظاماً يعكس جمالاً فى مجال الرؤية ، حيث رصت فى نظام بديع يكشف الجمال اللونى ، ويغرى بالاشتواء . . ومن خلال هذه

(١) مشاهد القيامة ص ٢٠٧ .

الطراجة اللونية والحسية، تفوح الرائحة من الفاكهة والطعام، فتثير النفس وتنعش القلب، وتدغدغ الحس.

والكأس شغل حيزاً متحركاً يضوى بالنور ويمتلئ بشراب له لون الخمر يتناسق ويتحاور مع بهاء الولدان وما يتبدى منهم من جمال.

والأفراد يصفون على سكون المجال وسكينة حركة متوازنة مع توزع مفردات المساحة وتنوعها.

إن اللون يتسيد الوحدة التصويرية ويستدعى إثارة الحس البصري واستكناه الخيال لإدراك الصورة.

ولقد تكاملت الوحدة بتنويكات تشكيلية منسجمة.

●● وثمة نمط مشهدي آخر يتناول صور النعيم في فصلها تفصيلاً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالْأَنذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعَمُونَ فِيهَا عَلَى حَبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شُمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرٌ مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيَسْقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا * عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سَنَدَسٌ

خُضِرُوا وَاسْتَبْرَقُوا وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَيِّعُكُمْ مَشْكُوراً ﴿١﴾ .

الآيات الكريمة تشي بصور النعيم الحسية المفصلة . ولقد وصفت الأبرار بما يناسب النعيم الهادئ الرغيد .

فشربهم في الجنة ممزوج بالكافور من عين تتفجر تفجيراً ، فيها الكثرة والوفرة . ولذة الشعور به تتضاعف وترقى . وهو نعيم يتلاءم مع عباد الله ، الأبرار ، الذين شفت قلوبهم وأخلصت لله العبادة . وقد أنسهم الله وأكرمهم ولعل الإضافة المعنوية في عبارة (عباد الله) توحى بهذا المعنى . ومن ثم صورت الآيات هؤلاء في صورة وضيفة شفاقة لقلوب مخلصه عازمة على الوفاء . إنهم يلتزمون بدينهم شاعرين بثقل الواجب ، يتصفون بشعور البر والعطف والخير ، يخافون الله ويخشون يوم الحساب . ومن ثم أسرع السياق بوقايتهم من شر هذا اليوم وإنعامه عليهم بالجنة . وكانت صورة الجنة بمفرداتها وأشيء هذا الجزاء . وتمازجت الصورتان صورة المحتفى به ، وأدوات الاحتفاء .

فهم يتمتعون بجو جميل لا هوب البارد ولا هوب الحار ، يستروحون جمال الظلال . فهم لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، كما أن الظلال دانية ، والثمار دانية .

قال ابن عباس : إذا هم أن يتناول من ثمارها تدلّت إليه حتى يتناول منها ما يريد) .

وتضاف صورة جديدة لألوان المتعة واللذة التي ينعم بها الأبرار

المتقون وهي أنهم يلبسون ثياباً غاية في الجمال والنعومة حيث صنعت من الحرير ما رق منه وما غلظ كما يتزينون بالأساور الفضية . . وهذا النعيم كله إنما هو عطاء من الله . عطاء كريم من معطٍ كريم .

ومن الجدير ذكره أن الأساور قد تنوع وصفها في السياق القرآني فقد وردت في سورة الكهف ﴿يَحْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ . وفي سورة فاطر ﴿يَحْلُونَ فِيهَا مِنْ مَنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا﴾ . . (إنهم تارة يلبسون الذهب فقط ، وتارة يلبسون الفضة ، وتارة يلبسون اللؤلؤ فقط على حسب ما يشتهون ، ويمكن أن يجمع في يد أحدهم أسورة الذهب والفضة واللؤلؤ)^(١) .

وثمة تفصيل آخر يدور حول مفردة من مفردات الصورة ، فهذه أواني الشرب الفضية صافية كالزجاج ، متنوعة الأحجام في تناسق بديع ، ثم هي تمتزج بالزنجبيل مرة وبالكافور مرة أخرى . كما تملأ من عين عذبة جارية . . ولعل المناسيب الجمالية مقدرة بحيث يتحقق المتاع والجمال معاً . وما يزيد جمال الأواني أن الساقين أطفال في سن الصبابة والوضاء كأنهن قطع من اللؤلؤ الفائق الجمال .

إن السياق يمد بأبصارنا فحيثما اتجه النظر فثمة نعيم عظيم وملك كبير ، وتتمازج مفردات المشهد في إبراز هذا النعيم العظيم . فعباد الله يتنعمون بمتاع الجنة من شراب ، وظلال ، وثياب وحلى .

وصورة عباد الله وهم على أرائكهم صورة تبين هذا النعيم المقيم . فثمة استرخاء وتمدد ، وراحة واسترواح وإحساس بالسعادة تشرق به

(١) صفوة التفسير ج ٣ ص ٤٩٥ .

الوجوه، فتلك الاشجار التى تلقى بظلالها تنويعا لالوان المتاع، تتدانى بأغصانها المترعة بالثمر فتتدلى الثمار حتى تصبح عند أطراف الأصابع تلتقطها فى شوق ولذة .

● وفى سورة محمد يتضح لنا بعد آخر من أبعاد الصورة .

قال تعالى : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى وهم فيها من كل الثمرات ﴾ (١) .

الآية الكريمة تعطينا بُعدا آخر لصورة الجنة ، بُعدا متكامل فيه الجزئيات ، وتسيطر مفردة واحدة على المساحة . إنها الأنهار الجارية ، الممتلئة المتدفقة التى ينبثق من جريانها هذا الصوت الجميل فتسعد به النفس ويمتلئ القلب سرورا . . إن العين فى رصدها للمجرى تحدث لذة جمالية ، والأذن وهى تسمع هذا الصوت تلتذ بإيقاع الحركة المتناغم الداخلى إلى الوجدان الباعث فى الشعور سرورا وفرحاً . ثم تأتى حاسة التذوق بما يسد رغبات النفس والجسم معاً .

لقد توزعت المفردة الكبرى (الأنهار) إلى جزئيات تتباين من حيث المادة التى يحتوئها المجرى . . إنه تنوع فى المحتوى ، يحدد طبيعة النهر وسر النعمة فيه .

فثمة أنهار تجرى فيها المياه الصافية العذبة التى لا يتغير طعمها أبداً ، فتظل تحتفظ بعذوبتها ، وأنهار تمتلئ باللبن المصفى حلاوة ودسماً لا يفسد ولا يتحول ، وأنهار تجرى بخمر لذیذة الطعم يتلذذ بها

(١) سورة محمد الآية ١٥ .

الشاربون، خالية من كل ما يُفسد أويُسِّء، وأنهار جارية بالعسل المصفى حسن اللون والرائحة، طيب الطعم حلوا المذاق، وذلك فضلا عن الثمرات المتعددة من كل نوع وصنف.

ولعلنا نلاحظ الأداء التعبيري الذى يصف الصفاء فى محتوى النهر، ماءً ولبناً، بأنه مرة «غير آسن» ثم «لم يتغير طعمه» ووشت المفردات بالمعنى عن طريق النفى، كما أن اللفظين «لذة» و«مصفى» يؤكدان المعنى عن طريق الإثبات. . ثم تتحاور الألفاظ لتثبت المعنى وتؤكدده.

وصور النعيم ترق وتشف كلما ارتقى السامعون فى درجات الرقى الأخلاقى. ولقد واكبت الآيات أنواع المخاطبين وتنوع حالاتهم التى تتكرر كنهاذج بشرية.

«والله الذى خلق البشر أعلم بمن خلق. وأعرف بما يؤثر فى قلوبهم، وما يصلح لتربيتهم، ثم ما يصلح لنعيمهم ولعذابهم، والبشر صنوف، والنفوس ألوان، والطبائع شتى، تلتقى كلها فى فطرة الإنسان، ثم تختلف وتتنوع بحسب كل إنسان، ومن ثم فصل الله ألوان النعيم والعذاب، وصنوف المتاع والآلام وفق علمه المطلق بالعباد»^(١).

وهذا هو الهدف الدينى الذى يترقق خلف مشاهد الجنة.

●● والجنة هى ملاذ الأمنين المتقين.

ولقد وردت صورة الجنة فى آيات قرآنية بما يصفها بالهدوء والسكينة.

(١) الظلال ج ٦ ص ٣٢٩١.

قال تعالى في سورة الواقعة : ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ . فالجنة مكان مبرأ من كل ما يسيء أو يجرح المشاعر، إنه مكان يصون النفس ويحافظ على الكرامة ويحقق الاحترام . إنه ليس المكان الجميل فحسب وإنما هو المكان النظيف . فلا يصل إلى أسماع أهل الجنة كلام فاحش أو لفظ نابٍ ، ومن ثم فلا ارتكاب للإثم ماداموا لا يقولون أو ينطقون فاحشاً من القول أو هذراً من الحديث . وينحصر القول والحديث في إشاعة التحية الجالبة للمسرة والمودة ، فكل واحد يلقي السلام على أخيه ، فيفشو السلام ويسود الإلف .

وهذا تصوير نفسى جميل حيث تعطى الآية دلالة للشعور الداخلى الذى يجعل النفس تشعر بالسكينة والهدوء ، وتقبل على التمتع فى شوق ورضى وإحساس باللذة لا يكدره كدر ولا تشوبه شائبة . . ومن ثم ورد التكرار ليكرس هذا المعنى النفسى الجميل ، ولتصبح حياتهم سلاماً وليشع فى جنات الجنة السلام حتى ليضحى الجنوعاً آمناً والسلام يبسط أجنحته وينشر عطره الذى يشمل النفس والمكان معاً .

وقال تعالى فى سورة مريم : ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ «فلا فضول فى الحديث ، ولا ضجة ولا جدال ، إنما يسمع فيها صوت واحد يناسب هذا الجو الحالم الراضى . . هو صوت السلام»^(١) .

ويكفل هذا الجو الناعم سمعهم للملائكة يسلمون عليهم على وجه التحية والتكريم . ولقد تمازج التعبير عن الرزق مع هذا الجو الناعم

(١) مشاهد القيامة ١١٩ .

الرضي فالرزق في الجنة مكفول لا يحتاج إلى كدّ، ولا يشغل النفس، ولا يقلقها ولا يجعل للخوف سبيلاً إلى القلوب.

إنه أمان نفسى مكفول للنفس في سكينتها ورغباتها معاً.

وهذا البعد الصوتى الجميل — من أبعاد الصورة الكلية — ينساب في جنبات المكان في إيقاع محبب، يريح النفس ويرطب الوجدان.

الفصل الخامس :

الأداء التصويرى

فى

الحقائق والأحكام

. . لمسنا فيما سبق كيف أن التصوير الفنى بدلالاته المصاحبة يعتبر أحد الأدوات التعبيرية المميزة فى القرآن الكريم ، فالتصوير يحيل المعانى المجردة والذهنية ، والمشاهد ، والمواقف ، والوجدان . . إلى صور تنبض بالحركة بظلالها الحركية والصوتية واللونية ، فتبدو شاخصة مُحسنة — مؤثرة فى النفس ، بالغة غاية التأثير . .

والقرآن فى مجاله التصويرى معجز بكل المقاييس الفنية . وهو فى هذا المجال متفرد فى بابهِ . . من حيث الأداء اللفظى والخيالى . . مما يجعلنا نقرر فى وضوح لا لبس فيه أنه معجزة أدبية خارقة تحدى بها العرب قديما وحديثا وإلى يوم الدين .

قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾^(١) .

. . ولكننا يجب أن نقرر أيضا أن مجالات الإعجاز ليست مقصورة على هذا الحانب التصويرى الإبداعى . . (والقول بأن القرآن معجزة أدبية قبل كل شئ ، يجعل القرآن كتاب أدب ولغة وبلاغة ، فى حين أنه كتاب تشريع وتعليم وتنظيم ومن الطبيعى أن يكون ، وهو كلام خالق البشر وآدابهم ولغاتهم وبلاغاتهم ، معجزاً فى أسلوبه وصياغة تراكيبه وتعايبه وفوق كل التعايب والتراكيب)^(٢) .

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨ .

(٢) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ج ٤ ص ٧٧ .

.. والقرآن الكريم كلُّ في إعجازه ليس فيه جزء أبلغ من جزء، أو
أبين .. ومن ثم فإن من يعتبرون أن التعبير بالتصوير المجازي أبلغ من
التعبير بالحقائق قد جانبهم الصواب .. إذ ربما ينطبق ذلك على مجالات
اللاإداع البشرى . نثراً وشعراً، فكراً وأدباً .

أما القرآن، فلقد بلغ أقصى درجات البلاغة في الأداء التعبيري،
سواء جاء ذلك عن طريق التصوير أو جاء عن طريق التعبير بالحقيقة .
والحقيقة هي ما تدل عليه الألفاظ فيما وضعت له من غير خروج إلى
مجاز أو تشبيه ..

والحقيقة تستعمل في القرآن في مواضع كثيرة كالأحكام الشرعية
التي تحتاج إلى أن تكون الكلمة ذات دلالة محددة ليتم التعريف بالأحكام
كاملاً . كما تأتي في مجال الاستدلال القرآني على وحدانية الله بالنظر في
الكون وآيات الله فيه .

وإن بلاغة الحقائق التي تذكر من غير استعانة بمجاز أو تشبيه لا
تقل عن المواضع التي كان فيها .. تشبيه أو مجاز .

يقول الباقلاني (إن عجيب نظمته، وبديع تأليفه لا يتفاوت، ولا
يتباين، على ما يتصرف فيه من الوجوه التي يتصرف فيها من قصص،
ومواعظ، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير
وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير
مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها)^(١) .. فلا مزية للتعبير
بالتصوير الفني مادام التعبير بالحقيقة ينهض بأداء المعنى دون نقصان ..

(١) اعجاز القرآن . الباقلاني : تحقيق السيد صقر ص ٣٦ .

وعلماء البلاغة يرون جمالية المجاز أبلغ من الحقيقة . . في تأدية المعنى . . ولكن إذا كان التعبير بالحقيقة ينهض بأداء المعنى كاملاً فلا مزية للتعبير بالمجاز أو بالصورة — فالحقيقة تنافس المجاز، ولكل وسيلة وأداته .

والقرآن الكريم — وهو المعجزة الخالدة والحجة الدامغة في الفصاحة والبلاغة وجماليات الأداء التصويرى — قد حفل بالحقائق وعبرها في عدد ضخم من الآيات .

واشتهال القرآن على الحقيقة غير منكور (ولو كان التعبير بالحقيقة أقل بلاغة من التعبير بالمجاز لخلا القرآن كلية من الحقيقة، وفضل التعبير بالمجاز في جميع المواقف والأحوال، في تشريعه وتعليمه وترغيه، ولسار على نمط واحد من التخيل والتأويل لكى يترك أثره الذى لا يتركه التعبير المجرد الدقيق)^(١) .

وفي الحقيقة فإن آيات القرآن تبرز الحقائق في قيمة تأثيرية لا تقل عن بلاغة التصوير المجازى . فالبلاغة قد تقتضى التوضيح والتحديد كما قد تدعو إلى التأكيد أو الوفاء بالمعنى عن طريق الإشارة أو الرمز، ولكل موقف ما يناسبه من الأداء، عن طريق الحقيقة أو التصوير، بحيث لا يغنى أحدهما عن الآخر في نقل المعنى .

يقول الباقلانى (وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد، فى حسن النظم وبديع التأليف والوصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العلا . ولا إسفاف فيه إلى المرتبة

(١) القرآن والصورة البيانية ص ١٢٥ .

ولنأخذ نموذجاً قرآنياً وردت فيه الأحكام مجردة في أداء تعبيرى حقيقى .

● قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ كَانُوا مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .

الآيات القرآنية الكريمة تدور حول محور هام وواضح وهو غرس القيم الأخلاقية في نفوس المسلمين . . وهو محور تربوى يخاطب النفس المسلمة خطاباً تربوياً إسلامياً يهدف منه إلى تشكيل النفس المسلمة تشكيلاً إيمانياً خالصاً ومبرئاً من الشوائب ، ومن ثم تتدرج الأحكام حتى تصل من الشدة الى حدِّ الرجم . .

(١) إعجاز القرآن ص ٣٧ الباقلانى .

(٢) سورة النور الآيات ٢ — ١٠ .

إن حدّ الزنا حكم شرعى، فالجلد للبكر من الرجال أو النساء . .
ومعنى البكر هنا مَنْ لم يحصن بالزواج . . ولقد ثبت الجلد بالقرآن .
والرجم للمحصن من الرجال أو النساء . ولقد ثبت الرجم بالسنة .
والآيات تتناول حد الجلد . . وتتشدّد في تنفيذه دون هوادة،
وتطالب بعدم تعطيل الحد في الجلد أو الترفق فيه، فجريمة الزنا من
الشناعة بحيث لا يكون لرحمة مجال فيها . ويجب إقامة الحدّ في مشهد عام
تحضره جماعة المؤمنين ليكون أبلغ في الزجر وأوجع في الروع . فإن
الفضيحة قد تنكل أكثر مما ينكل التعذيب .

وتلتفت الآيات إلى موقف تشريعى آخر مرتبط بجريمة الزنا . وهو
حكم يرتبط بتكوين الحياة الزوجية عن طريق الزنا . فالزانى لا يحق له
الزواج من المؤمنة العفيفة . ذلك أن المشترك الدينى والخلقى إن صح
التعبير غير متوفر، وهو أساس هام فى الإسلام لصلاح الأسرة المسلمة .
وإنما لا يقع الزانى ولا يتزوج إلا بزانية مثله أو بمشركة، زيادة فى الخسة
والدناءة وابتعاداً عن طريق الحق القويم . والزانية لا يحق أن يتزوج بها
المؤمن العفيف وإنما يتزوجها من يلائم طبعها خسة ودناءة وقبحا .
فالنفوس الطاهرة تأبى الزواج من النفوس الفاجرة الفاسقة .

(قال الامام الفخر: من أحسن ما قيل فى تفسير هذه الآية . إن
الفاسق الخبيث لا يرغب فى نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب فى
فاسقة خبيثة مثله، أو فى مشركة . والفاسقة الخبيثة لا يرغب فى نكاحها
الصلحاء من الرجال وينفرون عنها . وإنما يرغب فيها من هو من جنسها
من الفسقة والمشركين)^(١) .

(١) صفوة التفسير ج ٢ ص ٣٢٦ .

فالأية الكريمة توضح لنا طبيعة المؤمن العفيف فهي تفيد (نفور طبع المؤمن من نكاح الزانية ونفور طبع المؤمن من نكاح الزانى واستبعاد وقوع هذا الرباط بلفظ التحريم الدال على شدة الاستبعاد . ﴿وحرّم ذلك على المؤمنين﴾ . وبذلك تقطع الشوائب التي تربط هذا الصنف المدنس من الناس بالجماعة المسلمة الطاهرة النظيفة)^(١).

والإسلام وهو يحدد هذه العقوبات يحارب الحيوانية التي لا تفرق بين جسد وجسد ، أو لا تهدف إلى إقامة حياة أسرية مشتركة ، وهو يدعو إلى أن تقوم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الرقيقة . فالزنا نكسة حيوانية وردة إلى الغرائز المتوحشة ، يطيح بكل القيم والثواب الدينية . فالإسلام ينظم هذه الدوافع الغريزية الفطرية . ويعلوها على المستوى الحيوانى . ومن ثم جاء التشديد فى عقوبة الزنا (لدفع النكسة الحيوانية عن الفطرة البشرية ووقاية الآداب الإنسانية التى تجمعت حول الجنس ، والمحافظة على أهداف الحياة العليا من الحياة الزوجية المشتركة القائمة على أساس الدوام والامتداد)^(٢).

ومن جماليات الأداء القرآنى أن الزانية قدمت على الزانى ثم قدّم الزانى عليها مرة أخرى . وهذا التقديم والتأخير يحمل دلالة لها معنى مصاحب لكل منهما ، فالمرأة هى أداة الإغراء ومبعثه ومن ثم جاءت مقدمة ، على حين تأخرت فى السياق لأنها وردت فى مجال النكاح والرجل أصل فيه . .

يقول الزمخشري (والمرأة هى المادة التى منها نشأت الجناية ، لأنها لو

(١) الظلال ج ٤ ص ٢٤٨٨ .

(٢) الظلال ج ٤ ص ٣٤٨٩ .

لم تطمع الرجل ، ولم تومض له . ولم تمكنه ، لم يطمع ولم يتمكن . فلما كانت أصلاً . . بدىء بذكرها . وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح ، والرجل أصل فيه ، لأنه هو الراغب والخابط ومنه يبدأ الطلب^(١) .

. . . ولقد تضمنت الآيات حدّ القذف .

والإسلام لا يعتمد العقوبة الرادعة وحدها وسيلة لحياة أسرية نظيفة قائمة على الخلق الاسلامى بل يعتمد الضمانات الوقائية المساعدة والداعية إلى الطهارة والتطهر .

فبعد أن حددت الآيات عقوبة الزنا ، وجعلت الزناة منبوذين في المجتمع ، تطرقت إلى حدّ القذف ووصفت له قوانينه ومواصفاته الشرعية حفاظاً على كرامة الإنسان من أن تهدر بفعل حقد حاقده ، أو إشاعة كاذب .

فالذين يقذفون المحصنات العفيفات المؤمنات بالزنا دون أن يؤيدوا قذفهم بأربعة شهود عدل يشهدون بارتكاب الفاحشة ، فالحد الشرعى الواجب على كل منهم أن يجلد ثمانين جلدة ، فهم يستحقون هذا العقاب لكذبهم وخوضهم في أعراض الناس بالبهتان . ولزيادة تحقير هؤلاء أكدت الآية على عدم قبول شهادة هؤلاء . . لأنهم فاسقون خارجون عن طاعة الله .

قال ابن كثير: (أوجب تعالى على القاذف إذا لم يقيم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام: أحدهما أن يجلد ثمانين جلدة . الثاني: أن تردّ شهادته أبداً . الثالث: أن يكون فاسقاً ليس يعدل لا عند الله ولا عند

(١) الكشف ج ٣ ص ٦٢ .

والذين يتوبون ويرجعون إلى الحق ويندمون على ما فعلوا من اقتراف الذنب يُردّ إليهم اعتبارهم وتقبل شهادتهم .

ولقد شدد القرآن في عقوبة القذف فجعلها قريبة من عقوبة الزنا . . فشيوخ الاتهام بلا دليل مجلبة للآلام التي تصيب الحرائر والشرفاء معا . ومدعاة للوقوع في الإثم . وسببا في افتقار الطمأنينة . .

إن ترك الألسنة تلقى التهم بلا دليل يترك المجال فسيحا لمن شاء أن يقذف ، فتصبح الجماعة وتمسى وأعراضها مجرّحة وسمعتها ملوثة . والشك يمرح في كل بيت ويتغلغل إلى كل نفس . . ومن ثم جاءت العقوبة بمقدار هذا الهول النفسى الناتج عن جريمة القذف . . . أما في قذف الرجل لامرأته فالوضع يختلف . .

فالرجل قد يقذف امرأته لأمر ربه فيسأل عما شاهده وقد لا يكون الواقعة فيرجع عن باقى الشهادات ولا يكون هذا قذفا يستوجب الحد لأن الشهادات لم تتم فإذا أتمها وسكتت المرأة رجمت وإذا حلفت درأت عن نفسها الحد ثم هو قد يكون كاذبا فالزوج القاذف يشهد أربع شهادات — تقوم مقام الشهداء الأربعة في حد القذف — إنه من الصادقين في اتهامه زوجته بالزنا . ثم يحلف في الخامسة بأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين في قذفه لها . . ويدفع عن الزوجة أن تحلف أربع مرات إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنا ، وتحلف في الخامسة بأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين في قذفه .

والآيات الكريمة فيها تيسير على الأزواج يناسب دقة الحالة وخرج الموقف ومن ثم كان التعقيب، بأن ذلك فضل من الله، وبأنه ثواب يقبل التوبة بعد مقارفة الذنوب.

●● هذه الآيات الكريكات التى تناولت حد الزنا ثم حد القذف العام وحد القذف الخاص، وردت خالية من التصوير الذى يعتمد على المجاز ورسم الصورة الحسية ومع ذلك فلقد بلغت من البلاغة والبيان وتصوير الحقيقة حداً عالياً من الإعجاز. فالتألف بين الألفاظ والمعانى تألف ثابت ومتواصل. فكل مفردة قرآنية تتناول حكماً، تومىء إلى ما بعدها وتوضح الهدف من المعنى المراد. وبيان التعليل.

فمفردة الزانى والزانية. تؤكد الجرم الأخلاقى فى ظل تشريع إسلامى. وتوحى بظلال من التداعى التاريخى المرفوض فى الجاهلية حين كان الأمر معروفاً ومسلماً به — حتى أن المرأة كان يدخل عليها أكثر من رجل — ثم تحدد هى لمن يكون وليدها. فجاء الاسلام ووضع الحد لهذه الجريمة. وورود اللفظ بعد مفتتح السورة الدال على الآيات البينات التى وردت بها، دليل على أهمية الفعل وتجريمه ووضع الحد الملائم له.

.. كما يدل اللفظان كما يقول الزمخشري على الجنسين المنافيين لجنس العفيف والعفيفة مما يوحي بالحفاظ على هذه العفة من أن تدنس أو تختلط معالمها.

وجاءت مفردة «الجلد» أمراً واجب التنفيذ، فالرجل يجلد ليس عليه إلا إزاره. وكذلك المرأة. ليكون الحد موجعاً. ويشعر الجلد الحى. الذى نعم بلذة الفسق. بحدة الألم وقسوته. فتصبح اللذة

مصحوبة بألم شديد بدنى ثم نفسى مما يثير النفور منها عندما يتصور الواقع فى الخطأ مرارة العقاب . .

ولأن الجريمة شنعاء تؤدى إلى الفساد وتدعو إلى الحيوانية جاء النهى فى الآية مصحوبا بتنفيذ الأمر «فاجلدوا» . . فالنهي يدعو إلى عدم الرأفة . . ويعنى النهى فى معناه العميق إلى التصلب والتشدد فى تنفيذ حدود الله . ثم يعود الأمر مرة أخرى ليطالب بمشاهدة الجماعة لتنفيذ الحد لما فيه من تشهير بالفاعل ، ولما له من ردع وزجر لغيره . . ثم تأتى المفردة القرآنية [حرّم] لبيان تحريم الزواج من الزانى أو الزانية لما يتصف به كل منهما من الفسق والفجور، وبُنى الفعل للمجهول لبيان إسناد أمره إلى الله سبحانه ، بحيث لا يجب المراجعة فيه بل التصلب فى تنفيذه . .

● عن عائشة رضى الله عنها أن الرجل إذا زنى بامرأة ليس له أن يتزوجها .

ويتضح لنا الجانب الآخر فى تصوير القيم الأخلاقية الداعية الى حفظ الكرامة ومراعاة العفة والبعد عن التجريح فى القول . . وكشف لنا اللفظ القرآنى هذا المعنى بلفظين . . هما (يرمون المحصنات) . .

فالمحصنات هن العفيفات . وسميت العفيفة محصنة لأنها منعت نفسها عن القبح . . ودلالة الاسم تشى بالتحصن المنيع . . ومن حروفه جاء الحصن المكين المانع . . وتصوّر امرأة قد اتخذت من النبل والعفة والشرف حصناً لها . تستكن وراءه وتحمى نفسها وشرفها به . .

فكيف ينال الفاجر من هذا الحصن : — لا بد أنه ، من حقه ، ومن نفسه المريضة — يحاول محاولات مستميتة ليخترق هذا الحصن —

حتى يصل الى قلبه فيدميه . . وكأننا نحن أمام صورة حصن منيع يحاول أن يصل إليه انسان بشتى الطرق فحين يعجز عن تسلقه ، أو الدخول فيه ، أو الالتفاف حوله . يلجأ إلى رميه بالحجارة أو وسائل أخرى . .

وكذلك الفاسق الذى يحاول بنفسه المريضة ، أن يصل الى المرأة العفيفة فتتكسر محاولاته ، وتطيش سهام إغراءاته ومحاولاته ، فلا يبقى له إلا أن يقذفها نكالاً وحقداً . . إنها صورة تعبيرية بالغة الجمال .

ومن ثم جاء لفظ «الرمى» . . بيانا لحالة الفاسق الذي يتهم العفيفة ، وهى حالة نفسية فى المقام الاول . . والتنظيم لابد أن يعالج حالات النفس هذه فى مرضها وفسقها . ومن ثم جاء القذف بتعبير الرمى لما فيه من كشف لحالة الترصد التى يريدها الرامى . . وحالة الغيظ التى تعتوره . . فيرمى قذفه لعله ينال منها بعدما عجز فى الحقيقة . .

فكان الكلمة المقذوفة فى حق العفيفة حجر صلدٌ يחדش ويؤذى ويميت . . وهذا فى الحقيقة وارد . . ولعلنا نذكر فى مجال حديث الإفك كيف كانت حالة السيدة عائشة — حتى كان الموت أحب إليها وذلك من شدة الآلام التى عانتها فى هذا الموقف العصيب .

ولننظر الى مفردة قرآنية أخرى وهى «يدرأ» . . ومعناها . . يدفع . . ولننظر الى حركة الرمى ، ثم إلى حركة الدفع اتقاءً له . . فتتصور صورة حية لامرأة عفيفة ، تمتد يدها فى حرص بالغ لتتلقى هذه الرميات وتدفعها عنها حتى لا تُصيبها بأذى أو بمكروه نفسى أو اجتماعى .

فثمة حركتان متبادلتان حركة الرمى ، وحركة الدفع . . وكلتا الحركتين تشيان بنفسية الرامى والمدافع على حد سواء . .

ولأن الكلمة / الرمى . . شديدة الوقع ، ولأنها قد تقذف باستهتارٍ ولا مبالاة كان العقاب الصارم الذى شرعه القرآن . . حتى يظل اللسان عفيفاً وحتى تظل المحصنة خلف حصن العفة لا يؤذيها حاقداً أو فاسق . .

. . إن التآلف بين الألفاظ والمعانى . من ملامح إعجاز الأداء التعبيرى فى القرآن . . (فإذا وجدت الألفاظ وفق المعنى ، والمعانى وفقها ، لا يفضل أحدهما على الآخر، فالبراعة أظهر والفصاحة أتم)^(١) .

ومن ثم فإن ماورد فى الأداء القرآنى فى مجال التعبير عن الحقائق والأحكام بعد فى قمة البلاغة بالرغم من خلوه من المجازات أو الصور البديعة ، ذلك لان التعبير القرآنى يميل الى وضع اللفظ فى معناه الحقيقى لأننا فى مجال تشريع وتنظيم وبناء مجتمع دينى قائم على الشريعة وأحكامها .

يقول الباقلانى فى هذا المجال : مجال ارتباط الأحكام بالألفاظ البديعة المعبرة ، والتي هى إحدى مجالات الإعجاز فى ارتباطها بالمعانى .

(. . إن المعانى التى تضمنها فى أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات فى أصل الدين ، والرد على الملحدين ، على تلك الألفاظ البديعة ، وموافقة بعضها بعضاً فى اللطف والبراعة ، مما يتعذر على البشر ويمتنع)^(٢) .

●● وتذكر نموذجاً آخر لبعض آيات الأحكام ، التى ترد على الحقيقة مع التأكيد على أن القرآن كتاب الله لا تتفاوت عباراته ، فلا فرق

(١) اعجاز القرآن ص ٤٢ .

(٢) نفسه ص ٤٢ .

في البلاغة بين ما جاء منه حقيقة أو ما جاء عن طريق التصور والمجاز.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخُواتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبنَاتُ الْأَخِ وَبنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخُواتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا تِراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَخَذَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَإِنْ أُتِيَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾.

الآيات القرآنية وردت في سياق المنهج القرآني الداعي إلى تنظيم المجتمع المسلم واستنقاذه من رواسب الجاهلية . وذلك بتطهيره من الفاحشة واستنقاذ المرأة مما كانت تزرع تحته من ظلم وعنت .

(١) سورة النساء الآيات ٢٢ — ٢٥ .

فأول الأحكام التى وردت فى الآيات : تحريم الزواج من زوجة الأب ، لما فيه من فحش وفساد ، فهى تعتبر من جانب كالام ، كما أن الأمر يستدعى شعوراً عادائياً بين الأزواج . مما يؤدى إلى كراهية الأب ، فضلاً عن أن المرأة تصبح إرثاً للولد مما يهبط بمكانتها .

ومن ثم جاء التشديد على تحريم هذا الفعل الذى كان شائعاً فى الجاهلية . إنه أحد الرواسب الجاهلية المقيتة . .

ثم بينت الآيات المحرمات من النساء . .

فمنهن المحرمات بالنسب كالأمهات والبنات والأخوات والعمات والخاللات وبنات الأخ وبنات الأخت .

ومنهن المحرمات بالرضاعة حيث أنزل الله الرضاعة منزلة النسب . وقد وضحت السنة النبوية الحكم فى هذا الموضع فى قوله ﷺ . . (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب) . .

ومنهن المحرمات بالمصاهرة ، كبنات الزوجات ، وأزواج الأبناء أو الجمع بين الأختين .

. . إن التحليل والتحريم من شأن الله وحده لأنها أخص خصائص الألوهية فلا تحريم ولا تحليل بغير سلطان من الله . .

وآيات الاحكام هذه جاءت على الحقيقة ، حيث لم يستعمل فيها التصوير أو المجاز . . ومع ذلك فهى غاية فى الإبداع والإعجاز ، انطلاقاً مما ورد ذكره فى الآيات السابقة من تألف بين اللفظ والمعنى . . وأن . . كل كلمة تومىء إلى الكلمة التى تليها لبيان الحكمة وإيراد التعليل .

ولقد بدأت الآيات بما كان مترسباً فى الجاهلية من عادات مقيتة

كزواج الابن من زوجة الأب . . ولقد بدأت الآيات بها لما لها من خطر وشأن . . فالابتداء بالتحريم هنا دليل على أهمية الفعل وخطورته فضلاً عن قوة التأثير الذى يضمنه . ومن ثم جاء وصف الفعل بصفات قاسية . . حيث وصفته الآيات بأنه (فاحشة ومقت) .

أما أنه فحش فهو ينافى الطبائع السليمة والأخلاق الكريمة . .
وأما أنه مقت فلا أنه ممقوت عند الناس ولذلك كان العرب يسمونه (نكاح المقت) . ذلك أن الجاهلية كانت تكرهه .

والمقت هو البغض الشديد لمن تعاطى القبيح .
لقد تألفت الألفاظ مع المعنى المراد وبينت هول الفعل وحرمة كلية — واستنقذت المرأة من ظلم وقع عليها طويلاً، وأعادتها كرامتها، كما حفظت للأسرة تماسكها ونظامها . .
وقد وردت الأحكام فى تناسق تام وارتباط حميم . . بحيث يدعو الحكم ما وراءه فى تسلسل منتظم . .

(وكان من مقتضى التناسق المعنوى أن تذكر بعد صلات النسب الصلات السببية وهى المصاهرة، فابتدأ بأمهات الزوجات، ثم اتجه الذهن . . إلى الرئائى، لأنه إذا ذكرت الأم تطلعت النفس الى ذكر حكم البنت . . ثم ذكر حكمة التحريم وهوأنهن فى حجره وكبناته . . ولما يستدعيه قانون تداعى المعانى أن تذكر زوجات الأبناء . . وهكذا نرى أن المعانى كل واحدة تدعوها السابقة فتلاحقها فى اتساق ونسق جامع)^(١) .
ولقد وردت الآيات فى سياق متكامل، ونغم متآلف، وصورة عامة

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٣٧ .

تتمثل في رسم صورة عامة لاسرة مسلمة متكاملة ، فيها التراحم ،
والتواصل والمحبة . . وما التشديد في التحريم ومجالاته إلا لبقاء هذا
التراحم موصولاً في الأسرة جيلاً بعد جيل . .

إن ما اختص به القرآن من تقابل بين الحقائق في البيان وتوافقه في
العبارات من غير منافرة أو مفاضلة متحقق وثابت ، كما أن العبارات
اختصت بكمال الاشراق ونوره . .

إن جمال التعبير يشرق دائماً ، وحلاوة النغم تنساب في النفوس ، كما
تنطلق الاحكام إلى العقل والقلب معاً ، محملة بالعظة والعبرة والتوجيه
إلى العدل والرحمة في بناء النفوس وإقامة أواصر الاسرة على أساس متين .

. . ولعلنا نلاحظ الإيجاز الكامل في قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ
أَمْهَاتُكُمْ ﴾ . . وجاء التحريم اطلاقاً . . ولكن العبارة تحتوى على مجاز
مرسل . . من أهدافه الإيجاز الذى يصاغ المعنى فيه بإرادة شئء محذوف
يدل عليه السياق . . فالمراد هنا هو نكاح الأمهات . . مما يعنى قطعية
الدلالة . .

كما أن الأداء التعبيرى لجأ إلى الصورة البيانية الجزئية . . في قوله
تعالى ﴿ وَاللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾ . . إذ إن المراد هو الجماع والوطء . . ولكن
الأداء القرآنى استخدم كلمة « دخلتم » وتعنى الستر الذى يستر المرأة مع
زوجها . . وفيه إيحاء بما يمكن أن يحدث بين الزوج وزوجته . .

ولقد جاءت المفردة القرآنية في مجال لا يחדش الحياء ولا يثير الغريزة
فضلاً عن الإيفاء بالمعنى المراد . . مما يجعل للمفردة القرآنية اتساقاً خاصاً
يتلاءم مع المعنى المراد . . ويتألف معه .

وكذلك قوله تعالى ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم﴾ . .

فالربائب : جمع ربيبة : وهى بنت المرأة التى تتربى فى كنف زوج الأم . . والكلمة تحمل معانى كثيرة ، منها التريبة ، والملازمة ، ومداومة العشرة . . وتواصل الألفة مما يعنى نفوراً تاماً ، وبغضاً أكيداً . . وتقطعا للمودة لو حدث النكاح من الربيبة . . لأنها فى هذه الحالة تشبه الابنة فى مكانتها . . وتردف مفردة «حجوركم» هذا المعنى . . معنى البنوة القائمة على مداومة التريبة والعشرة . . مما يستدعى أن تعلو المشاعر النبيلة فوق المشاعر الغليظة . . يقول الزمخشري فى تحليله للدلالة المصاحبة لمفردة حجوركم (فائدته التعليل للتحريم وأنها لاحتضانكم لهن فى حكم التقلب فى حجوركم إذا دخلتم بأمهاتهن ، وتمكّن بدخولكم حكم الزواج وثبت الخلطة والألفة وجعل الله بينكم المودة والرحمة ، وكانت الحال خليقة بأن تجروا أولادهن مجرى أولادكم ، كأنكم فى العقد على بناتهن عاقدون على بناتكم)^(١) . .

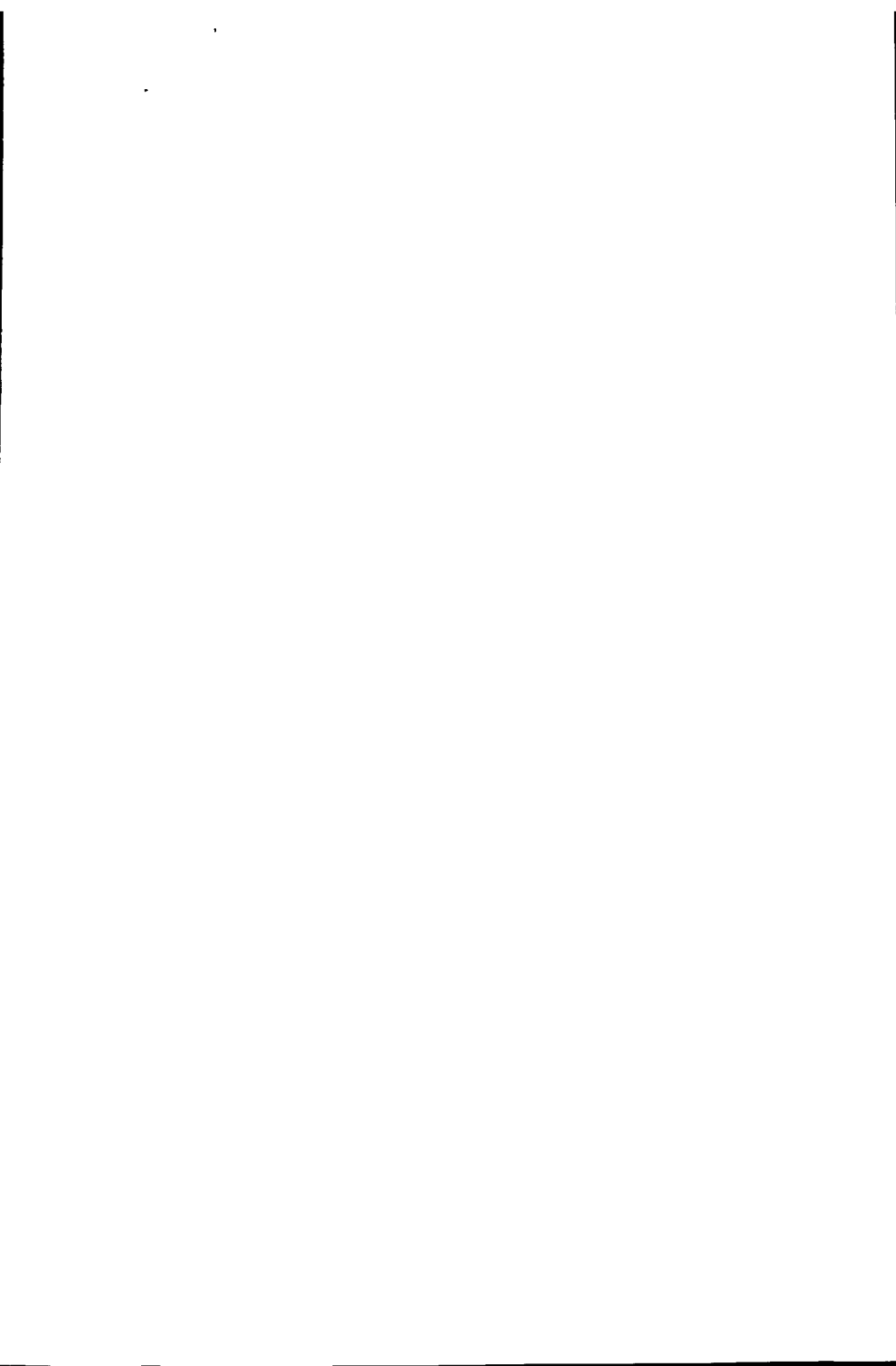
. . إن الأحكام التشريعية وجه من وجوه الإعجاز فى القرآن ، بسموه فوق كل تشريع ، وبآدائه التعبيرية المتألف والمتناغم والواضح الدلالة . .

(فالقرآن قد أعجز ولايزال بمعانيه قبل ألفاظه ، معانيه التى هى مناسبة لفطرة الناس فيما حدثهم به من عقيدة سهلة ، وشريعة سمحاء ، وفيما استوفته من حقائق الوجود ورب الوجود)^(٢) .

قال تعالى : ﴿ما فرطنا فى الكتاب من شىء﴾ .

(١) الكشف ج ١ ص ٢٦١ .

(٢) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ج ٤ ص ٧٧ ، ٧٨ .



الفصل السادس :

**التصوير والإرشادات
الغيبية والعلمية**

القرآن الكريم هو كلام الله المعجز ولقد لمسنا بعض مظاهر الإعجاز في المجال الأسلوبى من حيث جمال الأداء فى اللفظ والمعنى ، والروعة والبيان ، وجمال التصوير وتنوعه ، والنسق التركيبى فى الجرس الصوتى والتألف المعنوى . وفى الحروف والمفردات والتركيب والبيان التصويرى . مثله فى ذلك مثل الأداء الحقيقى فى مجال الشرائع والأحكام . . وعلومه وحكمه ، وفى كشف الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلية . فإعجاز القرآن (إنما كان بفصاحة ألفاظه ، وروعة بيانه ، وأسلوبه الفريد ، الذى لا يشابهه فيه أسلوب ، لا من نثر ، ولا من شعر ، ومسحته اللفظية التى تتجلى فى نظامه الصوتى وجماله اللغوى وبراعته الفنية)^(١) . .

إلا أن إعجاز القرآن لا يقتصر على هذا الجانب كما ذكرنا سابقا ، بل هناك وجوه أخرى لإعجاز القرآن . .

وستتناول فى هذا الجانب موضوعين . .

●● الأول : الإخبار عن المغيبات . .

ومن هذه المغيبات ما ورد عن الحرب التى ستقع بين الروم والفرس . . وهى أمور وقعت فى المستقبل وما كان لأحد أن يعلمها إلا من قبل العليم الحكيم .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ * غَلَبْتَ الرُّومَ * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾^(٢) .

سورة الروم مكية ، تهدف كطبيعة السور المكية إلى معالجة قضايا

(٢) الثبيان فى علوم القرآن . محمد على الصابونى ص ٩٨ .

(٢) سورة الروم الآيات ١ — ٥ .

العقيدة الإسلامية المتمثلة في الوجدانية، والرسالة، والبعث .

ولقد بدأت السورة بالحديث عن حدث غيبي هذا الحدث أخبر عنه القرآن قبل وقوعه .

والآيات سبة وذلك حين انتصرت فارس على الروم وكان بينهما عدا مستحكم لديانة المسيحية على حين تغوص فارس في وثنيها الدينية ولقد كانا يفرضان بطريقة أو بأخرى سيطرتهم على أطراف الجزيرة العربية فيما يجاورهما من أماكن وتشير الآيات إلى أن الروم قد انهزمت أمام جيوش فارس وشاع ال وكان ذلك أثناء الجدل الدائر بين المسلمين والمشركون في مكة حول الإسلام ولقد وجد المشركون في ذلك فرصة للنيل من عقيدة الإسلام ومناسبة للاستعلاء بالشرك وفألاً بانتصار ملة الكفر وكانوا يقولون في تيه وعجب ألم تنتصر الفرس وهي الوثنية على الروم وهم أصحاب كتاب؟ وتصوروا بعقلهم القاصر وبوجدانهم المختلط أنهم سيظهرون على المسلمين وسيكون لهم الغلبة وما انتصار فارس إلا إشارة إلى ذلك . .

ولقد أثر ذلك على المسلمين فاغتموا وحزنوا لهزيمة الروم وهم أهل كتاب . فنزلت الآية القرآنية الكريمة لتبشر المؤمنين بانتصار الروم على الفرس بعد زمن قليل في بضع سنين وأثارت البشرى بعض العجب والدهشة . كيف تنتصر الروم على الفرس وقد أنهكتها الحروب وأضعفتها؟ وكيف تنهزم الفرس وهي الدولة القوية المسيطرة؟ . .

ولم تمض المدة حتى انتصر الروم وانهزم الفرس وتحققت نبوءة القرآن وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة النبوية . .

(قال أبو السعود: وهذه الآيات من البينات الباهرة، الشاهدة

بصحة النبوة، وكون القرآن من عند الله عز وجل، حيث أخبر عن الغيب الذى لا يعلمه إلا العليم الخبير ووقع كما أخبر^(١).

. . والآيات تتضمن إحياءات تبرز مدلولات تصاحب هذا الحدث الهام . .

وأول هذه الإحياءات ذلك الترابط بين الشرك والكفر فى كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والايان . فلقد اعتبر مشركو مكة أن انتصار الفرس انتصار لهم . . والايحاء الثانى هو إبراز قوة العقيدة فى النفوس وقوة الثقة المطلقة بالله . . ذلك أن التبشير بنصر أهل الكتاب تغلغل إلى النفوس وتمكن فى القلوب حتى أن أبابكر رآه على النصر . . وكسب الرهان وهذه الثقة هى التى ملأت قلوب المسلمين قوة ويقينا وثباتاً .

والإحياء الثالث (هو فى تلك الجملة المعارضة فى مساق الخبر من قول الله سبحانه ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾) والمصارعة برد الأمر كله لله . . فالنصر والهزيمة وظهور الدول ودورها، وضعفها وقوتها . شأنه شأن ما يقع فى هذا الكون من أحداث ومن أحوال مرده كله إلى الله^(٢). ومن ثم يصبح التسليم والاستسلام أقصى ما يملكه لبشر أمام قدر الله وما يجريه فى الكون .

● والعقيدة الإسلامية وهى ترد الأمر كله إلى الله لا تعفى البشر من الأخذ بالأسباب وتتضمن الآيات نبوءة أخرى وبشرى طيبة .

تلك النبوءة تشير إلى أن المسلمين سيفرحون بنصر قريب، فى الوقت

(١) صفوة التفاسير ج ٢ ص ٤٧١ .

(٢) الظلال ج ٥ ص ٢٧٥٧ .

الذى ينتصر فيه الروم ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ . . ولقد صدق الله وعده وتحققت النبوءة وذلك حين انتصر المسلمون فى موقعة بدر الكبرى . . وتنسم المسلمون هواء النصر . . والتحم النصران معا على الكفر والشرك . .

قال ابن عباس : كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان ، وعبدة النيران . يقول الزمخشري فى تعليقه (وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة ، وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذى لا يعلمه إلا الله) (١) .

●● وفى هذا المجال فإننا يجب أن نؤكد أن الإخبار عن المغيبات اتخذ طريقين : طريق المستقبل . . أى الإخبار عن أمور مستقبلية . . وقد تحقق ذلك جميعا ولقد ذكرنا نموذجا لذلك . . وطريق الماضى . . أى الإخبار عن غيوب الماضى التى اطلع عليها الرسول ولم يكن له بها علم . مثل القصص القرآنى . .

ولقد وردت آيات قرآنية كثيرة تتضمن المنّ على رسول الله بما جاء حول قصص الأنبياء وأمهم ومواقفهم .

قال تعالى : ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر﴾ * إن العاقبة للمتقين ﴿ (٢) .

والإخبار بالغيب من دلائل الإعجاز . .

(ووجه الإعجاز فى الماضى وقصصه أن النبى ﷺ نشأ أميا لا يقرأ ولا يكتب . ولم تكن نشأته بين أهل الكتاب ، حتى يعلم بالتلقين

(١) الكشف ج ٣ ص ١٩٧ .

(٢) سورة هود الآية ٤٩ .

علمهم . . وكان قومه أميين لا يسود فيهم علم من أى طريق كان إلا أن يكون علم الفطرة والبيان ، وإرهاق أحاسيسهم بالشعر والكلام البليغ^(١) . .

ونزل القرآن فى هذا الوسط الأمى ، يتحدث عن أمم سابقة ، وأنبياء مضوا فى التاريخ حملوا الرسالة ، ودعوا إلى التوحيد ، وواجهوا أمم الكفر والوثنية . . وأظهر ما حل بالذين كفروا وضلوا . وطالبهم بأن يروا الشواهد والآثار الدالة على ذلك من بقايا الأمم الضالة . .

لقد جاء القرآن بتفصيله الصادق المحكم عن أخبار الرسل والأنبياء . . ولقد صدق القرآن فيما حكاه حول الرسل والرسالات . . فى حين اختلفت الصورة عما ورد فى كتب أهل الكتاب . . من يهودية ونصرانية .

ولنذكر دليلاً قرآنياً على هذا الجانب الغيبى الخاص بقصص الأولين . .

قال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ * إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال ، كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنها يقول له كُنْ فىكون * ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾^(٢) .

(١) القرآن المعجزة الخالدة ص ٣٣٩ .

(٢) سورة آل عمران الآيات ٤٤ — ٤٨ .

.. الآيات الكرييات تتناول مواقف متنامية لقصة مريم وابنها عيسى عليه السلام . وهى أمور مغبية لا يعرفها الرسول ﷺ فدخلت بذلك فى باب الإعجاز بالمغيبات الماضية .

وتبدأ الآيات باسم الإشارة البعيد (ذلك) .. إشارة إلى الموقف الأول فى القصة وهو ولادة امرأة عمران لمريم .. ونذرها لعبادة الله .. وكفالة زكريا لها .. حتى إذا بلغت مبلغ النساء انزوت فى محرابها تتعبد الله . وكان زكريا كلما دخل عليها المحراب يجد عندها الطعام والشراب .. وكان يدهش لما يرى وكانت تحببه : أن ذلك رزق من الله ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ .

إن هذا الموقف الذى تنامى من لحظة الولادة إلى لحظة الانقطاع إلى العبادة وما جرى فيه .. وحى أوحى به الله إلى محمد ﷺ .. وما كان يعلمه .. وتشير الآية إلى موقفين .. لم يرد فى كتب النصارى .. وهو تسابق سدنة الهيكل إلى كفالة مريم . والنص هنا يشير إلى حادث إلقاء الأقدام لمعرفة من تكون مريم له . وكعادة القرآن فى قصصه فإنه لا يفصل الحادث ، وإنما يختار ما يريد لهدف دينى أو عظة تربوية ..

وربما كان هذا الحادث — حادث حركة رمى الأقدام — من أسرار السدنة التى لا تفشى ولا تباح فجاءت فى القرآن دليلا على الوحى . ومن ثم فقد ورد أنهم لم يجادلوا فيه .

روى كما جاء فى الطبرى — أن حنة حين ولدتها لفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد — الهيكل — ووضعتها عند الاحبار وهم فى بيت

المقدس كالحجة في الكعبة فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة . فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ثم اقترعوا فخرجت في كفالة زكريا فكفلها . وتنتقل الآيات إلى موقف قصصى آخر وهو البشارة بمولد المسيح . .

فها هو جبريل يبشر مريم بمولود يكون بكلمة من الله دون واسطة بشرية . يكون سيداً في الدنيا والآخرة . . وتجري المعجزات على يديه طفلاً وكهلاً .

يقول الزمخشري (ومعناه . . يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت من حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء)^(١) .

. . وتقف مريم مندهشة متعجبة وتتساءل كيف أتى بولد دون زوج! . . ويأتيها الجواب . . إن أمر الله عظيم لا يعجزه شيء فإذا أراد شيئاً حدث دون تأخر . .

ويمضى السياق سارداً صفات عيسى عليه السلام . . إذ تؤكد الآية أن الله أعطاه الكتاب وصواب الرأي وحفظ التوراة والإنجيل . . ثم يجتبيه رسولا إلى بنى إسرائيل . . (لقد بشرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم فتضمنت البشارة نوعه واسمه ونسبه ، وظهر من النسب أن مرجعه إلى أمه ، ثم تضمنت البشارة كذلك صفته ومكانه من ربه . . كما تضمنت معجزة تصاحب مولده . . ولمحة من مستقبله . . وسمته والموكب الذي ينتسب إليه)^(٢) . .

(١) الظلال ج ١ ص ٣٩٨ .

(٢) الظلال ج ١ ص ٣٩٨ .

.. وكشفت الآية موقف الفتاة الحريصة على الشرف والكرامة في موقف المفاجأة المدهشة .. وأبرزت الانفعال الذى يطغى على الأنثى في مثل هذا الموقف فاتجهت إلى الله ضارعة أن يفك لها هذا اللغز ..

وحين يأتى الجواب برد الأمر كله إلى الله ، نزول الحيرة ويذهب العجب ، ويطمئن القلب ويفيد النص أن رسالة عيسى كانت لبني إسرائيل . ومن ثم فإن التوراة المشرّعة والمنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية هى كتاب عيسى عليه السلام ، فضلاً عن الإنجيل الذى تضمن إحياء الروح وإيقاظ الضمير.

● ولقد جاءت القصة فى أسلوب سردى وحوارى مما أثار الانفعال الوجدانى فى نفس القارئ ، وتضمنت نقلات فى الزمان . واختزالاً له . فمرة نحن أمام مريم طفلة ، تحتاج إلى الرعاية والكفالة . ومرة فتاة ناضجة تتلقى البشارة بميلاد طفل .

وفى المرة الأولى : نقف على حركة الصراع حول الكفالة .. وحدة الانفعال ، أو الآراء المتصارعة .. تكشف المفردتان (ألقوا) و(يختصمون) ، تلك الحركة المنفعلة الراغبة فى فعل الكفالة . كما تكشف رغبات سدنة الهيكل فى الاستئثار بهذا الفعل تقريباً ..

وفى المرة الثانية : نقف بعد نقلة زمنية أمام موقف يتسم بالدهشة والغربة والاصطفاء معاً . فمريم الفتاة المتعبدة تفاجأ بملك يشرها بمولد طفل منها ..

وهنا تنداح الانفعالات البشرية المختلطة والممزوجة بين الحيرة والقلق والخوف .. ويبرز هذا السؤال كيف ؟ .. ويحمل السؤال كل الانفعالات التى تخضع لها الأنثى فى مثل هذا الموقف ..

ولأن الموقف أنشئ فجاء التعبير (ولم يمسسنى بشر) للإيفاء بالمعنى المراد، دون أن يجرح المشاعر، أو يتخطى جمالية الأداء في الخطاب . . . وهذا التعبير الكنائى . . . يحمل دلالات التعفف والتحصن مما يثير في ذهن مريم حيرة على حيرة وخوفاً على خوف . . . ومن ثم فإن عبارة القرآن ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ . . . جاءت لترد الأمر كله إلى الله . . . ولتزيل الحيرة والشك ولتبعد الخوف، ولتهبىء مريم للحظة التلقى . . .

. . . ولقد جاء التعبير القرآنى فى قصة يحيى على هذا النحو ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ . . . فالآيتان متشابهتان فى النظم الأسلوبى ولكن الفعل الحقيقى اختلف : ففى الأول ورد اللفظ (يخلق) والسياق القرآنى يعطى المفردة القرآنية دلالتها وسرها التركيبى . . .

. . . فخلق عيسى من غير أب وإيجاد واختراع جاء على غير ما يحىء البشر من التقاء بين الذكر والأنثى ، طبيعة الحياة القائمة على التزاوج بين نوعين يكمل بعضهما الآخر. ومن ثم فإن خلق عيسى لم يأت عن الطريق الطبيعى الذى يستدعى وجود الرجل والمرأة . . . وعلى هذا فقد ناسب أن تأتى فى السياق القرآنى مفردة «يخلق» .

يقول سيد قطب رحمه الله (إن الله شاء أن ينشئ حياة على غير مثال . فأنشأها وفق إرادته الطليقة التى تنشئ الحياة بنفخة من روح الله . ندرك آثارها، ونجهل ماهيتها) . . .

ولقد مضى مألوف الناس على قاعدة أن للنشأة الانسانية طريقاً معروفاً وهو طريق إلتقاء الذكر والأنثى . . . حتى شاء الله أن يخرق القاعدة، فتلقى الأنثى . . . الأنثى فقط النفخة التى تنشئ الحياة ابتداءً .

.. أما في الآية القرآنية الخاصة بحييى .. فالأمر يختلف ..

فالنزول والزوجة موجودان .. ولكن في كل واحد منهما علة ..

فالنزول شيخ كبير هدهدته الشيخوخة وأضعفته .. إنه زكريا النبي الذي كفل مريم وأخلص لله ..

والزوجة فقدت خصوبة الأنثى الولود إنها عاقرة لا تنجب .. إن الأمر يبدو أمام العين البشرية مستحيلاً . ولذلك فقد علا السؤال مدهوشاً وحائراً في قول زكريا . يذكرنا بنفس الدهشة والعجب اللذين صاحباً مريم ..

قال زكريا لربه في حيرة العبد المؤمن :

﴿قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر، وامرأتى عاقرة، قال، كذلك الله يفعل ما يشاء﴾^(١).

إن قصة ولادة يحيى من عجوز عاقرة وشيخ قد بلغ من الكبر عتياً شىء خارق للعادة .. ولذلك لاءم اللفظ القرآنى (يفعل) .. السياق العام .. لوجود الزوج والزوجة والعائق فيها .. فناسب أن يأتى الفعل المعجز لوجود أدواته الطبيعية . بخلاف السياق فى قصد مريم وولادة المسيح .. فليس هناك وجود طبيعى للأدوات الفاعلة .. فليس ثمة إلا أنثى بما لاءم الخلق الفعل كله ..

.. ولا يفوتنا أن نذكر أن جميع القصص التى وردت فى القرآن الكريم إنما هى باب من الإخبار عن المغيبات فى الماضى ، وقد أطلع الله ورسوله محمداً ﷺ عليها .. ولم يكن له علم بها .. مما يدل على إعجاز

(١) سورة آل عمران الآية ٤٠ .

القرآن وأنه من عند الله وأنه ليس من كلام البشر كما ادعى الكفرة الجاهلون .



الثانى : الإشارات العلمية . .

القرآن الكريم كتاب الله ودستور المسلمين فى إقامة حياتهم على أساس من التشريع الإسلامى المحكم . . وهو يهذى ويرشد إلى السبيل الحق ، ويشرع من الأحكام ما فيه صلاح الأمة . .

ومع ذلك فثمة إشارات علمية دقيقة سبق إليها القرآن مكتشفات العلم الحديث . . فلم تحل آياته من إشارات إلى مجالات فى الطبيعة والطب والنفس والتكوين وغيرها . مما يدل على إعجازه العلمى . .

فمحمد ﷺ كان أمياً ، وقد نشأت فى بيئة بعيدة عن مظاهر الحضرة والتمدن . مما ينتفى معه فهم الإشارات العلمية التى وردت فى القرآن . . فما جاء فى القرآن من معلومات علمية لم تكن معلومة فى عصره . . ولم تُكتشف أسرارها إلا منذ عهد قريب . . مما يؤكد هذا الجانب الإعجازى أنه وحى من الله .

يقول «موريس بوكاى» ! (وإن القرآن الكريم ليس فيه مسألة واحدة تناقض العلم الحديث ، بل إن كل ما ورد فيه من آيات وإشارات فى علم الفلك وعلوم الحيوان والنبات ، وعن التناسب البشرى . . يوافق تمام الموافقة معطيات المعارف العصرية التى كانت مجهولة فى عصر النزول)^(١) .

(١) انظر كتاب القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ج ٤ وعرض المؤلف الفاضل لكتاب بوكاى .

والقرآن الكريم لا يهدف إلى تقرير حقائق علمية، لأن مقصده الجوهري ديني، وهو إذ يتحدث عن القدرة الإلهية فإنه يدعو إلى التدبر في ملكوته. وتتخلل الدعوة الإلهية إشارات علمية. وهذه الإشارات القرآنية تعد حدثاً جديداً في الوحي، جديراً بالاهتمام.

والقرآن الكريم وهو يشير إلى هذه الإشارات العلمية يشفع كلامه بالتأكيد على منفعته للناس..

ففى قوله تعالى: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً * وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾^(١).

وفى قوله تعالى: ﴿وبنينا فوقكم سبْعاً شَدَاداً * وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾^(٢).

في هاتين الآيتين وصف الله القمر بأنه منير والشمس بأنها سراج وهاج (ومعلوم أن الشمس نجم ينتج بفعل احتراقه الداخلى حرارة شديدة وضوءاً، وأن القمر الذى لا يضيء بنفسه يعكس الضوء الذى يتلقاه من الشمس.. وليس فى القرآن شىء يناقض ما نعرفه حول هذين الجرمين السماويين)^(٣).

والضياء والطاقة عاملان لازمان لحياة الإنسان والنبات والحيوان. فالشمس مهدت بإذن الله للحياة على الارض، فجعلتها صالحة لأن يعيش فوقها الكائن الحى.. وبالشمس تتم الدورة المائية المعروفة.. مما يؤكد ارتباط الاشارات العلمية بما ينفع الإنسان فى تنقله برا وبحرا،

(٢) سورة نوح الآيات ١٦ — ١٥.

(٣) سورة النبأ الآيات ١٢ — ١٣.

(٣) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ج ٤ ص ١٣٩..

واهتدائه ومعرفته عدد السنين والحساب .

●● ولننظر إلى السياق القرآنى الذى وردت فيه الآيتان فى سورة نوح فالسياق يشير إلى نعم الله سبحانه على خلقه ، ويدعو إلى التدبر فى آثار القدرة الإلهية والرحمة الربانية فى الكون .

●● قال تعالى : ﴿ مالكم لا ترجون لله وقاراً * وقد خلقكم أطواراً * ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً * وجعل القمر فيهن نوراً * وجعل الشمس سراجاً * والله أنبتكم من الأرض نباتاً * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً * والله جعل لكم الأرض بساطاً * لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ (١) .

● الآيات تذكير بنعم الله . . وقد وردت فى قصة نوح . .

وبدأت الآيات بأسلوب يتضمن التوبيخ . . فى تعجب من أمر هؤلاء المعاندين الذين دعاهم نبي الله نوح إلى التوحيد والهداية فواجهوه بالعناد والكفر . . فجاء التساؤل المصحوب بالدهشة والتعجب لبيان أن هؤلاء القوم لا يخافون عظمة الله وسلطانه : قال ابن عباس فى معنى الآية : أى مالكم لا تعظمون الله حق عظمته :

● إن قصة نوح تجربة من تجارب الدعوة ، وشوط من أشواط المعركة الخالدة بين التوحيد والكفر . كما أنها تكشف عن عناية الله ورحمته بالإنسان ، وكذلك الجهد المضنى من حملة الرسالة فى تبصير البشرية الضالة .

وهذه التجربة المرية التى مرَّ بها نوح مع قومه تُعرِّض على رسول الله

(١) سورة نوح الآيات ١٣ — ٢٠ .

ﷺ يرى فيها صورة من الكفاح لإقرار الحق من جانب، وصورة العناد من جانب آخر. . وتحمل البشرى للمؤمنين ممثلة في عناية الله بالقللة المؤمنة، كما تحمل الإنذار بالمصير السيئ للمكذبين الضالين. .

. . والآيات فصل في قصة نوح مع قومه. . وهى توجه أنظار القوم إلى آيات الله ونعمه في النفس والكون المحيط بهم.

والآية الأولى: التى ذكرهم بها نوح تتضمن قوله تعالى ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ ومقصود الأطوار هو تطور خلق الجنين من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى هيكل إلى خلق كامل. .

وهذه المراحل التكوينية للإنسان وردت مجملة في الآية — ولكنها جاءت مفصلة في آيات كثيرة. . وفي هذا الإجمال والتفصيل ما يشير إلى الحقائق العلمية التى أكدها العلم الحديث في مختبراته وبوسائله العلمية الدقيقة. .

قال تعالى: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق﴾^(١). والماء الدافق هو المنى. . والمنى يحمل ملايين الحيوانات السابحة فيه. . وبين هذه الملايين. . يدور سباق رهيب إلى البويضة الأنثوية للقاحها. . ولا يصل إليها إلا حيوان منوى يعلق بها. . ومن ثم جاءت المرحلة الأولى — النطفة، ثم يخرج من النطفة (العلق). . ذلك الحيوان المنوى الذى يعلق ببويضة المرأة ويمتص غذاءه منها، وحين يتم التلقيح تتعلق البويضة بجدار الرحم وتبدأ في امتصاص غذاءها. . قال تعالى ﴿خلق الإنسان من علق﴾ وفى اللغة: (العلقة دودة فى الماء تمص الدم والجمع علق وعَلقت المرأة حبلت. والعُلُق: نبت يتعلق بالشجر.

(١) سورة الطارق الآيات ٦، ٧.

وأعلق أظفاره فى الشئ أنشبهها^(١) .

ومن ثم فإن الحيوان المنوى يعلق بالبويضة وينشب بها ويستمسك .

... ثم تصبح العلقه فى نموها وتطورها كقطعة من لحم قدر ما يمضغ لم تتشكل بعد . . وهونائج عن الانقسام والتطور من خلق إلى خلق .

قال تعالى : ﴿فخلقنا العلقه مضغة﴾ . .

ثم يبدأ تطور الجنين فى مراحلہ التالية . .

قال تعالى : ﴿فخلقنا المضغة عظاما﴾ .

(إن المضغة ليست لحما بل هى خلايا متلاصقة وظيفتها تكوين اللحم والعظم والجلد والشعر والأسنان وكل ما يكون الجنين من أعضاء وأحشاء)^(٢) ولقد ثبت علميا أن العظام تنشأ بعد تطور المضغة مباشرة ، وأول ما ينشأ منها هو العمود الفقرى والجزء المركزى من هذا العمود .

وهذه الحقيقة لم تعرفها البشرية إلا بعد نزول القرآن الكريم بقرون طويلة . .

.. وبعد هذه المرحلة يبدأ اللحم فى تشكله فيكسو العظام . .

قال تعالى : ﴿فكسونا العظام لحما﴾ .

فاللحم ينشأ بعد العظام . .

والتطور مستمر ومتتابع يفيدہ حرف الفاء . . حتى يتخلق الجنين

(١) مختار الصحاح .

(٢) معجزة القرآن . نعمت صدقى ص ١٤١ .

خلقا كاملاً . . وهو يحتاج إلى زمن لتخلقه . . وتام تكوينه .

قال تعالى : ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ . .

. . وهكذا فإن الآية القرآنية المجملة . . والآيات الأخرى المفصلة . . قد وصفت وصفا دقيقا تطور خلق الجنين من أول لحظة من الحمل حتى يخرج إلى الدنيا إنسانا كاملاً سوياً . . والآية تشير إلى حقيقة علمية ثابتة . . وهى إشارة إلى وجه من وجوه الإعجاز القرآنى . .

يقول سيد قطب فى وقفته أمام الآيات من سورة نوح .

(ويمكن أن يكون مدلولها ما يقوله علم الأجنة ، من أن الجنين فى أول أمره يشبه حيوان الخلية الواحدة . ثم بعد فترة من الحمل يمثل الجنين شبه الحيوان المتعدد الخلايا ، ثم يأخذ شكل حيوان مائى ، ثم شكل حيوان ثديى . ثم شكل المخلوق الإنسانى . وهذا أبعد عن إدراك قوم نوح . فقد كشف هذا حديثاً جداً^(١) . .

الآية الثانية : بعد أن وجه نوح قومه إلى النظر فى أنفسهم ، وجههم إلى كتاب الكون المفتوح . . للتأمل والتدبر فى دلائل القدرة والوحدانية .

لقد طالب نوح قومه أن يتملوا عظمة القادر ، وينظروا فى اعتبار وتفكير وتدبر الى أن الله خلق سبع سموات ، متطابقة بعضها فوق بعض فى إتقان بديع . . وجعل فيها القمر منوراً لوجه الأرض فيخفف من ظلمة الليل ، كما جعل الشمس سراجاً يستضيء به أهل الدنيا . ودلالة اللفظ توضح المعنى .

ولما كان نور الشمس أشد وأتم ، وأكمل فى الانتفاع من نور القمر

(١) الظلال ج ٦ ص ٣٧١٤ .

عبر عن الشمس بالسراج لأنه يضيء بنفسه ، وعبر عن القمر بالنور لأنه يستمد نوره من غيره ، ويؤيده ما تقرر في علم الفلك من أن نور الشمس ذاتي فيها ونور القمر عرضي مكتسب^(١) . .

وهذا التوجيه يكفي لإثارة التطلع لإدراك القدرة المبدعة وهو المراد من التوجيه .

ولكن الآية كما رأينا تتضمن فضلا عن هذا التوجيه الإشارة العلمية . . الداخلة في إطار علم الفلك . .

(ونحن نعرف أن النجوم كالشمس ، أجرام سماوية تكمن فيها ظواهر فزيائية شتى نلاحظ من بينها ظاهرة إنتاج الضوء . . فهي بذلك أجرام مضيئة بذاتها . ويتكرر في القرآن لفظ نجم وجمعه نجوم . . والكواكب لا تضيء بنفسها وهي تدور حول الشمس . . وأحسن تعريف في القرآن الكريم لكلمة الكوكب هو ما ورد في آية مشهورة تنطوي على معانى روحية عميقة . . وهي ﴿الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاج كأنها كوكب دري﴾^(٢) . والمقصود قذف نور على جسم يعكسه (والجسم هنا هو الزجاج) فيجعله ساطعا كالدرشأنه في ذلك شأن الكوكب المنير بضوء الشمس^(٣) .

. . وتقضى الآيات البينات التي وجهها نوح إلى قومه لعلمهم يدركون القوة القادرة الكامنة وراءها . . حيث وجه نوح قومه إلى النظرة

(١) صفوة التفاسير ج ٣ ص ٤٥٣ .

(٢) سورة النور الآية ٣٥ .

(٣) انظر رأي بوكاي في القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ج ٤ ص ١٣٩ / ١٤٠ .

في نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها بالموت . .

ولقد تردد — في آيات قرآنية — التعبير عن نشأة الإنسان بالإنبات من الأرض . وهو تعبير موحٍ غاية الإيحاء ، يتخذ من التصوير أداة للإبراز المعنى المراد .

والتصوير يعقد لنا صورة مماثلة تجمع بين طرفين . . فنشأة الإنسان كنشأة النبات . . ولقد اقترن هذان الطرفان معا في آيات كثيرة . .

ولعلنا نلاحظ أن هذه الصورة الجامعة للإنسان والنبات ، ترد غالبا في سياق نشأة الإنسان وتطوره من مرحلته الجنينية إلى سوائه الكامل . وتربطه تصويراً بحياة النبات وتطوره على الأرض .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّظْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مَّضْغَةٍ مَُّخْلُوقَةٍ وَغَيْرِ مَخْلُوقَةٍ ، لَنَبِّئَنَّ لَكُمْ ، وَنَقْرُفِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّن يَرْدُ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ مِّن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً . وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً ، فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنَبِّتُ مِّن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (١)

وردت في هذه الآية القرآنية إشارة علمية أخرى تدور حول المضغة فالمضغة المخلقة هي الجنين ، وغير المخلقة هي المشيمة . . فلا جنين بلا مشيمة وهي التي تمدّه بالغذاء من دم الأم وتلازمه في الرحم وتخرج معه . «تترتب هذه الخلايا إلى كرتين ويزداد حجمهما بالانقسام ، وعند الخلط بين هاتين الكرتين يوجد أول شيء يمكن أن يسمى جنينا وهو

(١) سورة الحج الآية ٥ .

عبارة عن جسم مفلطح كَمَثَرَى الشكل أو بيضاوى الشكل ويسمى بالقرص الجنينى ، وبعد عدة تغيرات يبدو كأنه دودة ثم تكبر هذه الدودة وتكبر حتى تصير فى حجم المضغة هذا هو الجزء المخلق فى الآية ﴿من مضغة مخلقة﴾ أما المضغة غير المخلقة فهى الأجزاء الباقية من الكرتين خارج منطقة القرص الجنينى وهى التى ستكون المشيمة (الخلاص) (١).

وتشير الآيات الكريمة إلى أن الإنسان حين يعمر طويلا يرتد طفلا فى عواطفه ووعيه ومعلوماته ، وفى ذاكرته التى لاتمسك شيئا . طفلا فى أخذه الأحداث والتجارب ، لا يربط بينها رابط . . ثم يفلت من عقله ووعيه ذلك العلم الذى تخايل به وتناول .

وتربط الآية هنا — كما ربطت الآيات فى سورة نوح — بين أطوار حياة الإنسان وبين مشاهد الخلق والإحياء فى الأرض والنبات .

فالأرض هامة ثم ينزل الماء عليها فتزهو وتربو .

ومرة أخرى نعود إلى جمال التصوير القرآنى فى حين يرسم لنا صورة الأرض الجافة وقد تحركت بفعل الماء حركة اهتزاز فيه التشرب ، والحركة ، والانتفاخ والتفتح ثم خروج النبات زاهيا جميلا يبهج العين .

والقرآن ينشئ تصورا حقيقيا فى قلب المؤمن بإدراك العلاقة بين الأرض والإحياء . فالناس الذين نبتوا من الأرض يعودون إلى جوفها مرة أخرى . يعيدهم كما أنبتهم . فيختلطون بالتراب ، ثم ينبتهم مرة أخرى حيث الحساب والجزاء .

وهذه الصور الحسية التى ترسم لنا حركة الحياة كلها من البدء إلى المنتهى . . تجعل القلوب تستشعر قدرة الله وعظمته ، وتوضح حركة

(١) معجزة القرآن . نعمت صدقى ص ١٤٦ .

الحياة والبعث توضيحاً قائماً على إدراك العلاقة بين حسين يدركان ويقعان تحت المشاهدة والتجريب . وهما خلق الإنسان . ونمو النبات . فالأصل واحد . . والبذرة توضع فى التربة . . ويخرج الطفل كما يخرج النبات رايها . . حتى إذا جاء الأجل . . عادت الأحياء إلى جوف الأرض من جديد . . لتبعث يوم القيامة . . هذا التوجيه الحسى ، بعقد الصورة بين أطرافها . . يدعو إلى التأمل والتدبر فى قدرة الله . . والإيمان به وهو التوجيه الذى أرادته نوح من قومه .

(وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين أبناء الحياة جميعاً ، فيسلّكهم فى آية واحدة من آياته . وإنها للفتة عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة وإنها للدليل على وحدة عنصر الحياة . وعلى وحدة الإرادة الدامغة لها هنا وهناك فى الأرض والنبات والحيوان والإنسان . . . وتلتقى نواميس الخلق والإعادة ، ونواميس الحياة والبعث ، ونواميس الحساب والجزاء وتشهد كلها بوجود الخلق المدبر القادر الذى ليس فى وجوده جدال) (١) . .

● ثم يوجه نوح قومه إلى نعمة إلهية أخرى وهى نعمة تيسير الحياة على الأرض فلقد جعل الله الأرض فسيحة ممتدة وممهدة لطرائق الحياة المختلفة .

. . والآية تتضمن تصويراً خسياً جميلاً ، يأخذ بوسائل الإدراك البشرية ، ويقتحم مكامن العقول المدركة ، ليحدث الهزة الإيمانية فى النفوس — فهذه الأرض على امتدادها وتنوعها . . هيأت للإنسان — بإرادة الله — حياته . . إنها تبدو فى استوائها ، وتعم الإنسان بها ،

(١) الظلال ج ٤ ص ٢٤١١ .

وسلوكه فيها طرقا وتنقلا واستقرار حياة ، كالبساط الذى يمتد ويفرض ، ويتنعم به الإنسان . . ففى الجبال الراسيات وفى الوديان المنبسطة ، وفى الدروب الممتدة ، وفى الانفساح الهائل ، وفى التوازن بين اليابسة والماء . مشاهدات توجه الإدراك إلى التأمل فى قدرة الله ونعمه .

«قال الألوسى : وليس فى الآية دلالة على أن الأرض مبسطة غير كروية ، لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحا»^(١) . فالأرض نعمة الله لعباده ، مذلة لخدمة البشرية . تبدو للعين فى حالة استواء واستقرار ولكنها فى الحقيقة مسرعة غاية السرعة ، ومع هذه السرعة والدوران الهائل فإنها ذلول تحافظ على ما فوقها . . فهى تشد ما عليها أثناء حركتها الهادرة . . وذلك بفعل الجاذبية .

قال تعالى فى سورة الملك ﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً﴾ . . . وكما أن الأرض ذلول مهيأة لخدمة الحياة عامة . . فهى أيضا مثمرة مخصبة تخرج مما تحويه ما يفيد البشر ويجعل الحياة تنمو وتستمر . ثم يصبح من الإعجاز هذا الإعداد الإلهى لكوكب الأرض كى يصلح لدوام الحياة إلى أن يشاء الله .

وهذه الأرض التى تبدو منبسطة كالبساط ، هى فى الحقيقة ذات شكل كروى . . تدور حول نفسها وحول الشمس بعد انفصالها عنها . .

قال تعالى : ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿والأرض وما طحاها﴾^(٣) .

(١) صفوة التفاسير ج ٣ ص ٤٥٣ .

سورة النازعات الآية ٣٠ .

(٢) سورة الشمس الآية ٦ .

والآية تدل على أن الأرض انفصلت عن الشمس . . وأنها انتزعت منها : ولقد ورد في اللغة أن دحا الشيء بسطه . ودحا المطر الحصى عن وجه الأرض . أى نزعه . كما جاء في اللغة أن طحا بمعنى بسط مثل دحا .

والله دحا الأرض فمهدّها وبسط قشرتها وجعلها صالحة للحياة والنبات . وأخرج منها الماء والمرعى لدوام الحياة واستمرارها .

(والنظريات الفلكية الحديثة تقرب من مدلول النص القرآني حين تفترض أنه قد مضى على الأرض مئات الملايين من السنين وهى تدور دوراتها ، ويتعاقب الليل والنهار عليها ، قبل دحوها ، وقبل قابليتها للزرع ، وقبل استقرار قشرتها على ما هى عليه من مرتفعات ومستويات)^(١) .

وقال تعالى : في سورة النازعات ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ . فالماء هو أساس الحياة . والحياة لا توجد فى شيء إلا إذا كان الماء فيه بنسبة ما . ولا توجد حياة فى شيء جاف . لأن الجفاف يوقف التغيرات الكيميائية التى هى شرط أساسى لتغيرات الجسم الحى . .

جعل الله سبحانه الماء سبباً لاستمرار الحياة وضرورة لها (فإنه سبحانه خلق الإنسان من طين ، والطين ما هو إلا ماء وتراب . كما خلق سبحانه كل جنين فى بطن أمه من إنسان وحيوان من ماء دافق ومن نقطة أمشاج وخلق كذلك كل نبات على الأرض من تراب وماء ولم تبدأ الحياة على سطح الأرض إلا من وجود الماء)^(١) .

(١) الظلال ج ٦ الآية ٣٠ .

(٢) معجزة القرآن ص ٤١ .

فالماء أصل الحياة وسببها ، ودليل حفظها .

قال تعالى : ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ (١) .

والعلم أثبت هذه الإشارة العلمية في القرآن الكريم . فمن الثابت أن (أصل الكائنات الحية قد تكون في الماء . . وأن كل الكائنات الحية تتركب أساسا من ماء) (٢) . ولقد كشفت الإشارات العلمية في القرآن ما انتهى إليه العلم في هذا المجال .

. . إن القرآن الكريم كتاب الله أنزله على محمد ﷺ هداية للناس جميعا . واقتضت الحكمة الإلهية أن ترد فيه الإشارات العلمية في أسلوب موجز موح لا يصطدم مع المتلقى الأول ولا ينفي الحقيقة العلمية أيضا . . تلك الحقيقة الواردة عبر مشاهدات حسية معروفة — تحاطب المدارك العقلية . . وهذه الحقيقة العلمية المشار إليها يسرها الله فكشفت عن سرها حين تحققت الأسباب وارتقت العلوم . .

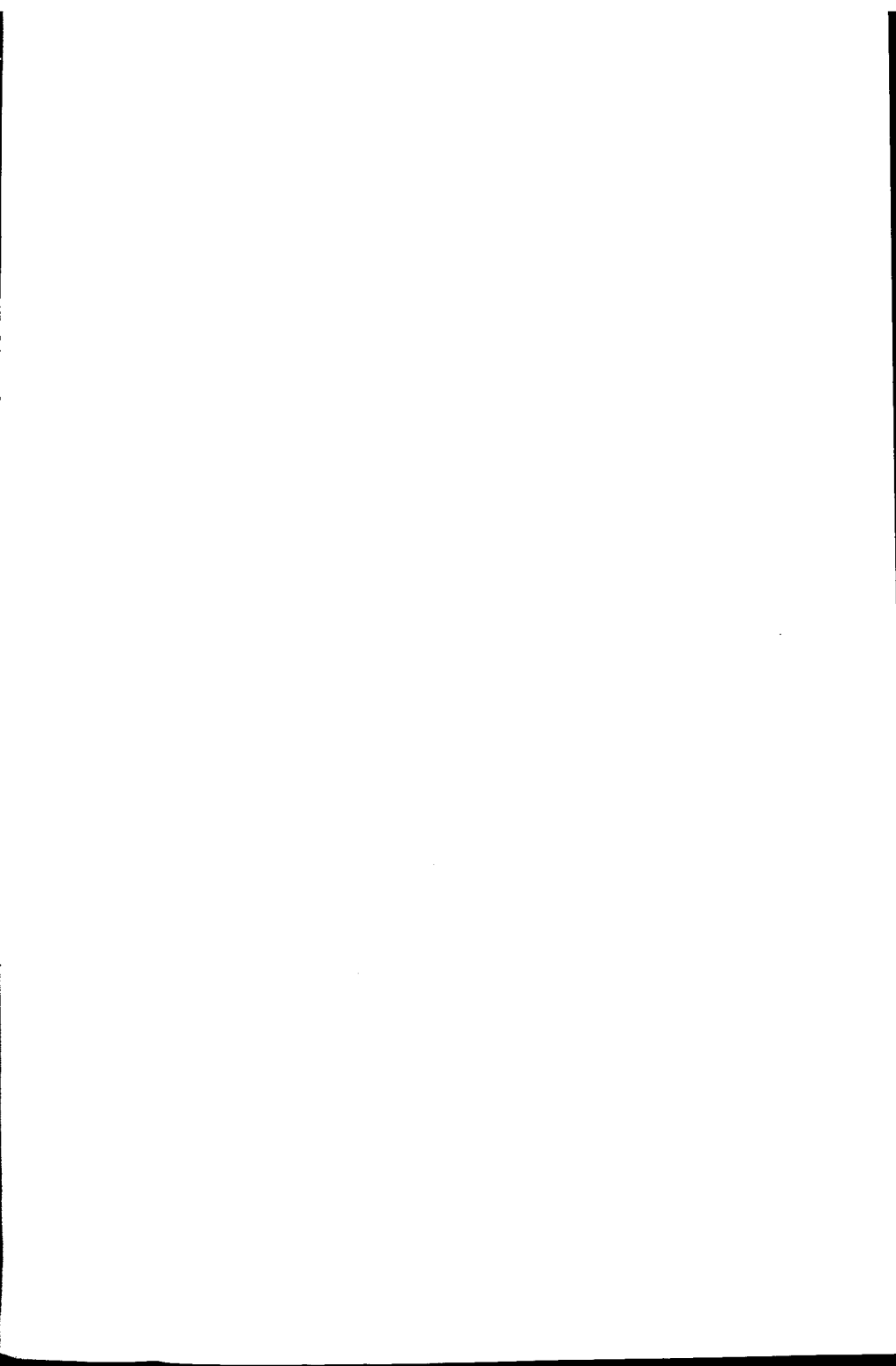
وصدق الله العظيم حين قال في محكم آياته

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ . .

صدق الله العظيم

(١) سورة الأنبياء جزء من آية ٣٢ .

(٢) الإسلام والنظر في آيات الله الكونية د . محمد الشرقاوى ص ٩٧ .



فهرس الموضوعات

| الموضوع | رقم الصفحة |
|-------------------------------------|------------|
| مدخل | ٧ |
| الفصل الأول : | |
| الجمال التصويرى بين اللفظ والمعنى | ٩ |
| الفصل الثانى : | |
| التنوع والوحدة | ٣٠ |
| الفصل الثالث : | |
| الأداء التصويرى وإيقاع الفواصل | ٤٩ |
| الفصل الرابع : | |
| الأداء التصويرى ومشاهد الجنة | ٧٦ |
| الفصل الخامس : | |
| الأداء التصويرى فى الحقائق والأحكام | ٩٣ |
| الفصل السادس : | |
| التصوير والإرشادات الغيبية والعلمية | ١١٣ |
| | ١٣٩ |

صدر من هذه السلسلة

- ١ - تأملات في سورة الفاتحة ----- الدكتور حسن باجودة
- ٢ - الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه ----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ٣ - الرسول في كتابات المستشرقين ----- الأستاذ نذير حمدان
- ٤ - الاسلام الفاتح ----- الدكتور حسين مؤنس
- ٥ - وسائل مقاومة الغزو الفكري ----- الدكتور حسان محمد مرزوق
- ٦ - السيرة النبوية في القرآن ----- الدكتور عبد الصبور مرزوق
- ٧ - التخطيط للدعوة الاسلامية ----- الدكتور محمد علي جريشة
- ٨ - صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية ----- الدكتور أحمد السيد دراج
- ٩ - التوعية الشاملة في الحج ----- الأستاذ عبد الله بوقس
- ١٠ - الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره ----- الدكتور عباس حسن محمد
- ١١ - لمحات نفسية في القرآن الكريم ----- د. عبد الحميد محمد الهاشمي
- ١٢ - السنة في مواجهة الأباطيل ----- الأستاذ محمد طاهر حكيم
- ١٣ - مولود على الفطرة ----- الأستاذ حسين أحمد حسون
- ١٤ - دور المسجد في الاسلام ----- الأستاذ محمد علي مختار
- ١٥ - تاريخ القرآن الكريم ----- الدكتور محمد سالم محيسن
- ١٦ - البيئة الادارية في الجاهلية وجذر الاسلام ----- الأستاذ محمد محمود فرغلي
- ١٧ - حقوق المرأة في الإسلام ----- د. محمد الصادق عفيفي
- ١٨ - القرآن لكريم كتاب أحكمت آياته [١] ----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ١٩ - القراءات أحكامها ومصادرها ----- د. شعبان محمد اسماعيل
- ٢٠ - المعاملات في الشريعة الاسلامية ----- الدكتور عبد الستار السعيد
- ٢١ - الزكاة فلسفتها وأحكامها ----- الدكتور علي محمد العماري
- ٢٢ - حقيقة الانسان بين القرآن وتصور العلوم ----- الدكتور أبو اليزيد العجمي
- ٢٣ - الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا ----- الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
- ٢٤ - الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر ----- الدكتور عدنان محمد وزان
- ٢٥ - الإسلام والحركات الهدامة ----- معالي عبد الحميد حمودة
- ٢٦ - تربية النشء في ظل الاسلام ----- الدكتور محمد محمود عمارة
- ٢٧ - مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي ----- د. محمد شوقي الفنجرى
- ٢٨ - وحي الله ----- د. حسن ضياء الدين عتر
- ٢٩ - حقوق الانسان وواجباته في القرآن ----- حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
- ٣٠ - المنهج الإسلامي في تعليم العلوم الطبيعية ----- الأستاذ محمد عمر القصار

- ٣١- القرآن كتاب أحكمت آياته [٢] ----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ٣٢- الدعوة في الاسلام عقيدة ومنهج ----- الدكتور السيد رزق الطويل
- ٣٣- الاعلام في المجتمع الاسلامي ----- الأستاذ حامد عبد الواحد
- ٣٤- الالتزام الديني منهج وسط ----- عبد الرحمن حسن حبيكة الميداني
- ٣٥- التربية النفسية في المنهج الاسلامي ----- الدكتور حسن الشرقاوي
- ٣٦- الاسلام والعلاقات الدولية ----- د. محمد الصادق عفيفي
- ٣٧- العسكرية الاسلامية ونهضتنا الحضارية ----- اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ
- ٣٨- معاني الأخوة في الإسلام ومقاصدها ----- الدكتور محمود محمد بابلي
- ٣٩- النهج الحديث في مختصر علوم الحديث ----- الدكتور علي محمد نصر
- ٤٠- من التراث الاقتصادي للمسلمين ----- د. محمد رفعت العوضي
- ٤١- المفاهيم الاقتصادية في الاسلام ----- د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
- ٤٢- الأقليات المسلمة في أفريقيا ----- الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
- ٤٣- الأقليات المسلمة في أوروبا ----- الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
- ٤٤- الأقليات المسلمة في الأمريكتين ----- الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
- ٤٥- الطريق إلى النصر ----- الأستاذ محمد عبد الله فودة
- ٤٦- الاسلام دعوة حق ----- الدكتور السيد رزق الطويل
- ٤٧- الاسلام والنظر في آيات الله الكونية ----- د. محمد عبد الله الشرقاوي
- ٤٨- دحض مفتريات ----- د. البدر اوي عبد الوهاب زهران
- ٤٩- المجاهدون في فطان ----- الأستاذ محمد ضياء شهاب
- ٥٠- معجزة خلق الانسان ----- د. نبيه عبد الرحمن عثمان
- ٥١- مفهوم القيادة في إطار العقيدة الاسلامية ----- د. سيد عبد الحميد مرسي
- ٥٢- ما يختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربي والماركسي ----- الأستاذ أنور الجندي
- ٥٣- الشورى سلوك والتزام ----- لدكتور محمود محمد بابلي
- ٥٤- الصبر في ضوء الكتاب والسنة ----- أسماء عمر فدعق
- ٥٥- مدخل إلى تحصين الأمة ----- الدكتور أحمد محمد الخراط
- ٥٦- القرآن كتاب أحكمت آياته [٢] ----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ٥٧- كيف تكون خطيباً ----- الشيخ عبد الرحمن خلف
- ٥٨- الزواج بغير المسلمين ----- الشيخ حسن خالد
- ٥٩- نظرات في قصص القرآن ----- محمد قطب عبد العال
- ٦٠- اللسان العربي والاسلامي معاً في مواجهة التحديات ----- الدكتور السيد رزق الطويل

- ٦١- بين علم آدم والعلم الحديث ----- الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي
- ٦٢- المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان ----- د. محمد الصادق عفيفي
- ٦٣- من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢] ----- الدكتور رفعت العوضي
- ٦٤- تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد ----- الأستاذ عبد الرحمن حسن جبنة
- ٦٥- لماذا وكيف أسلمت [١] ----- الشهيد أحمد سامي عبد الله
- ٦٦- أصلح الأديان عقيدة وشريعة ----- الأستاذ عبد الغفور عطار
- ٦٧- العدل والتسامح الاسلامي ----- الأستاذ أحمد المخزنجي
- ٦٨- القرآن كتاب أحكمت آياته [٤] ----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ٦٩- الحريات والحقوق الاسلامية ----- محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
- ٧٠- الانسان الروح والعقل والنفس ----- د. نبيه عبد الرحمن عثمان
- ٧١- كتاب موقف الجمهوريين من السنة النبوية ----- الدكتور شوقي بشير
- ٧٢- الاسلام وغزو الفضاء ----- الشيخ محمد سويد
- ٧٣- تأملات قرآنية ----- الدكتورة عصمة الدين كركر
- ٧٤- الماسونية سرطان الأمم ----- الأستاذ أبو إسلام أحمد عبد الله
- ٧٥- المرأة بين الجاهلية والاسلام ----- الأستاذ سعد صادق محمد
- ٧٦- استخلاف آدم عليه السلام ----- الدكتور علي محمد نصر
- ٧٧- نظرات في قصص القرآن [٢] ----- محمد قطب عبد العال
- ٧٨- لماذا وكيف أسلمت [٢] ----- الشهيد أحمد سامي عبد الله
- ٧٩- كيف نُدرّس القرآن لأبنائنا ----- الأستاذ سراج محمد وزان
- ٨٠- الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ ----- الشيخ أبو الحسن الندوي
- ٨١- كيف بدأ الخلق ----- الأستاذ عيسى العرباوي
- ٨٢- خطوات على طريق الدعوة ----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ٨٣- المرأة المسلمة بين نظرتين ----- الأستاذ صالح محمد جمال
- ٨٤- المبادئ الاجتماعية في الاسلام ----- محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
- ٨٥- التآمر الصهيوني الصليبي على الاسلام ----- د. ابراهيم حمدان علي
- ٨٦- الحقوق المتقابلة ----- د. عبد الله محمد سعيد
- ٨٧- من حديث القرآن على الانسان ----- د. علي محمد حسن العماري
- ٨٨- نور من القرآن في طريق الدعوة والدعاة ----- محمد الحسين أبو سم
- ٨٩- أسلوب جديد في حرب الاسلام ----- جمعان عايض الزهراني
- ٩٠- القضاء في الاسلام ----- سليمان محمد العيضي

- ٩١ - دولة الباطل في فلسطين ----- الشيخ القاضي محمد سويد
- ٩٢ - المنظور الاسلامي لمشكلة الغذاء وتحديد النسل ----- د. حلمي عبد المنعم جابر
- ٩٣ - التهجير الصيني في تركستان الشرقية ----- رحمة الله رحمتي
- ٩٤ - الفطرة وقيمة العمل في الاسلام ----- اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
- ٩٥ - أوصيكم بالشباب خيراً ----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ٩٦ - المسلمون في دوائر النسيان ----- أسماء أبو بكر محمد
- ٩٧ - من خصائص الاعلام الاسلامي ----- محمد خير رمضان يوسف
- ٩٨ - الحرية الاقتصادية في الاسلام ----- د. محمود محمد بابلي
- ٩٩ - من جماليات التصوير في القرآن الكريم ----- الأستاذ محمد قطب عبد العال
- ١٠٠ - مواقف من سيرة الرسول ----- الأستاذ محمد الأمين
- ١٠١ - اللسان العربي بين الانحسار والانتشار ----- الأستاذ محمد حسنين خلاف
- ١٠٢ - اخطار حول الاسلام ----- الأستاذ هاشم عقيل عزوز
- ١٠٣ - صلاة الجماعة ----- د. عبد الله محمد سعيد
- ١٠٤ - المستشرقون والقرآن ----- د. اسماعيل سالم عبد العال
- ١٠٥ - مستقبل الاسلام بعد سقوط الشيوعية ----- الأستاذ أنور الجندي
- ١٠٦ - الاقتصاد الاسلامي هو البديل ----- د. شوقي أحمد دنيا
- ١٠٧ - توجيه وارشاد الشباب المسلم نحو قضاء وقت الفراغ ----- عبد المجيد أحمد منصور
- ١٠٨ - المخدرات مضارها على الدين والدنيا ----- الدكتور ياسين الخطيب
- ١٠٩ - في ظلال سيرة الرسول ﷺ ----- الأستاذ أحمد المخزنجي
- ١١٠ - أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ----- محمود محمد كمال عبد المطلب
- ١١١ - زينة المرأة بين الاباحة والتحريم ----- د. حياة محمد علي عثمان خفاجي
- ١١٢ - التربية الاسلامية كيف نرغبها لأبنائنا ----- د. سراج محمد عبد العزيز وزان
- ١١٣ - النموذج العصري للجهاد الأفغاني ----- عبد رب الرسول سياف
- ١١٤ - المسلمون حديث ذو شجون ----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ١١٥ - الترف وأثره في المجتمع من خلال القرآن الكريم ----- ناصر عبد الله العمار
- ١١٦ - المسلمون في بورما .. التاريخ والتحديات ----- نورالاسلام بن جعفر علي آل فايز
- ١١٧ - آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم ----- د. جابر المتولي تميمية
- ١١٨ - اللباس في الاسلام ----- أحمد بن محمد المهدي
- ١١٩ - أسس النظام المالي في الاسلام ----- الأستاذ محمد أبو الليث
- ١٢٠ - المستشرقون والقرآن [٢] ----- د. اسماعيل سالم عبد العال

- ١٢١- الإسلام هو الحل ————— القاضي الشيخ محمد سويد
- ١٢٢- نظرات في قصص القرآن ————— الأستاذ محمد قطب عبد العال
- ١٢٣- من حصاد الفكر الإسلامي ————— د. محمد محي الدين سالم
- ١٢٤- خواطر اسلامية ————— الأستاذ ساري محمد الزهراني
- ١٢٥- الإسلام ومكافحة المخدرات ————— الأستاذ اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
- ١٢٦- دروس تربوية نبوية ————— الأستاذ صالح أبو عراد الشهري
- ١٢٧- الشباب المسلم بين تجربة الماضي وآفاق المستقبل ————— د. عبد الحليم عويس
- ١٢٨- من سمات الأدب الإسلامي ————— د. مصطفى عبد الواحد
- ١٢٩- خطوات على طريق الدعوة [الجزء الأول] ————— الأستاذ أحمد محمد جمال
- ١٣٠- خطوات على طريق الدعوة [الجزء الثاني] ————— الأستاذ أحمد محمد جمال
- ١٣١- المسجد البابري قضية لا تنسى ————— عبد الباسط عز الدين
- ١٣٢- التدريس في مدرسة النبوة ————— د. سراج عبد العزيز الوزان
- ١٣٣- الإعلام الإسلامي ووسائل التواصل الحديث ————— الأستاذ ابراهيم اسماعيل
- ١٣٤- تسخير العلم والعمل لمجد الإسلام ————— د. حسن محمد باجودة
- ١٣٥- منهاج الداعية ————— الأستاذ أحمد أبو زيد
- ١٣٦- في جنوب الصين ————— الشيخ محمد بن ناصر العبودي
- ١٣٧- التنمية والبيئة دراسة مقارنة ————— د. شوقي أحمد دنيا
- ١٣٨- الشريعة الإسلامية شريعة العدل والفضل ————— د. محمود محمد بابللي
- ١٣٩- سقوط الأيديولوجيات ————— الأستاذ أنور الجندي
- ١٤٠- الطفل في الإسلام ————— الأستاذ محمود الشرقاوي
- ١٤١- التوحيد فطرة الله التي فطر الناس عليها ————— فتحي بن عبد الفضيل بن علي
- ١٤٢- لمحات من الطب الإسلامي ————— د. حياة محمد علي جفاجي
- ١٤٣- الإسلام والمسلمون في ألبانيا ————— د. السيد محمد يونس
- ١٤٤- أحمد محمد جمال (رحمه الله) ————— مجموعة من الأساتذة الكُتّاب
- ١٤٥- الهجوم على الإسلام ————— الأستاذ أحمد أبو زيد
- ١٤٦- الإسلام والنظام العالمي الجديد ————— د. حامد أحمد الرفاعي

هذا الكتاب

القرآن الكريم كما قال عليه الصلاة والسلام من حديث طويل جامع - لا تنقضي عجائبه - وهذه حقيقة نشاهدها ونلمسها في الكون والحياة . والانسان .

ان القرآن لا تنقضي عجائبه وهو كتاب أحكمت آياته ومن هذه الآيات تلك التي تتحدث عن منظومة من الجماليات في تناسب رائع نسيجه الأسلوب البياني الرائع والمعنى المنسجم مع اللفظ والترنم الصوتي للجملية الكاملة ثم جرس الإيقاع المؤثر . والمشاهد التي تترى في تناغم أخاذ يشد النفس ويؤثر في العقل والقلب معاً في تألف متكامل بين اللفظ والمعنى . والصورة والشاهد . انه منتهى الإعجاز الذي يعجز عن الإتيان بمثله البشر . انه القرآن الكريم كلام الله جل جلاله . ووحيه إلى رسوله الأمين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وقد وُفِّق مؤلف الكتاب في تناول هذا الموضوع من جماليات التصوير في القرآن الكريم . في الفصول الستة التي اشتمل عليها وهي التصوير بين اللفظ والمعنى المتنوع والوصف والأداء التصويري لمشاهد الجنة . والحقائق والأحكام والارشادات العلمية حقاً انه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم عليم .

محمد محمود حافظ